جهاد شعب الجزائر

٤

الأمير عبد القادر الجزائري



بسام العسلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير عبد القادر الجزائري

(١٢٢٢ - ١٣٠٠ هـ = ١٨٠٧ - ١٨٨٣ م)

بسّام العسلي

دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م
الطبعة الثالثة : ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

© دار النفائس
بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقياً : دانفايسكو

الإهداء

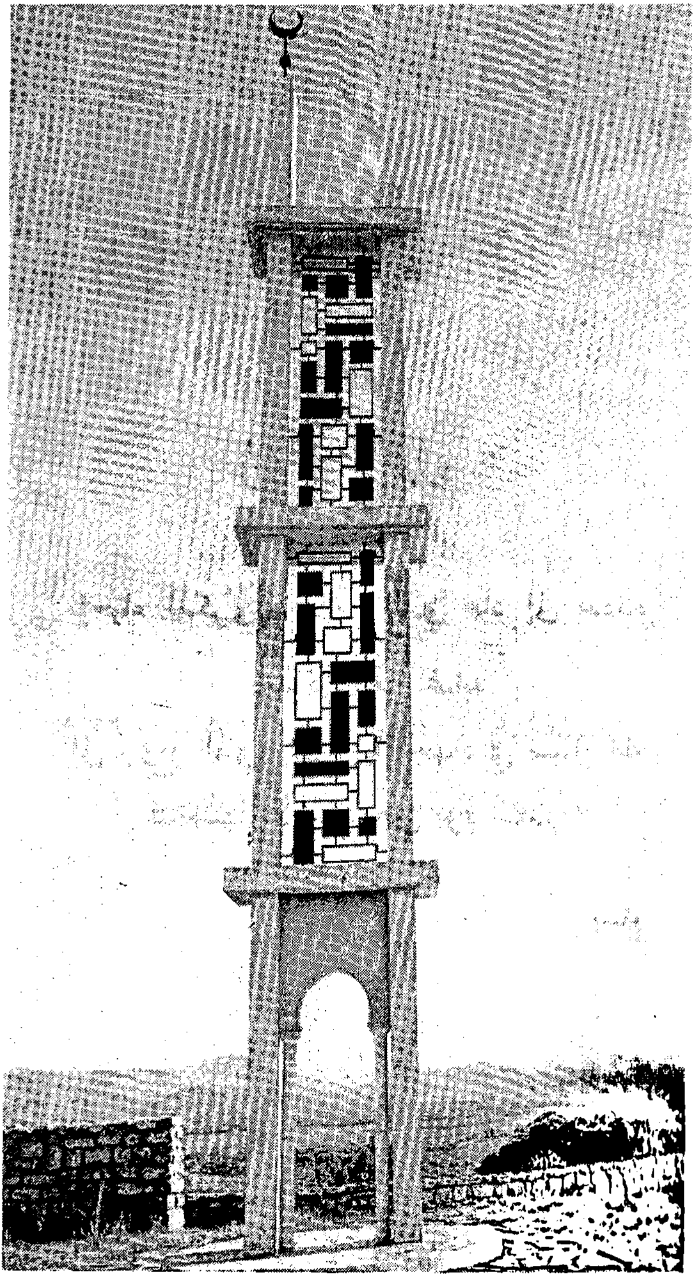
إحياء لذكرى السيف الذي عاد إلى غمده

بعد قرن من غيابه

إلى روح الذي رفع راية الجهاد في سبيل الله

فتناقلتها الأجيال حتى يوم النصر.

بسام



نصب تذكاري في عين المكان الذي صُدِّقَ فيه على معاهدة تافنا

المقدّمة

ويبدأ القرن الخامس عشر للهجرة.

وببدايته يكون قد انقضى قرن كامل على غياب سيف من اشهر سيوف الاسلام في العصر الحديث، ففي سنة (١٣٠٠ هـ) غيبت دمشق الخالدة في ثراها الامير الجزائري عبد القادر بن محيي الدين الذي كان (مرابطاً) من الاسرة الهاشمية التي تنتسب الى رسول الله ﷺ.

وحياة الرجل ليست بالحياة المجهولة او المغمورة، فقد استثارت أعماله في ميادين القتال خيال الكتاب والمؤرخين، فمضوا الى تسجيل منجزاته ووقائعه. وذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى حتى باتت سيرته، وستبقى، محور جدل قائم ومستديم.

لقد ظهر الامير عبد القادر في فترة تحول حاسمة في تاريخ المسلمين، فترة الانقضاض على الخلافة الإسلامية والإجهاز عليها، وخلال هذه الحقبة التاريخية ظهرت تناقضات مثيرة لا تزال ترسم أبعادها على صفحة العالم العربي ـ الاسلامي على الرغم من انقضاء قرن من عمر الزمن وعلى الرغم من اندحار القوى الاستعمارية العسكرية وجلائها عن اوطان العرب ـ المسلمين. ومن هنا فقد كانت

حياة عبد القادر وسيرته الشخصية انعكاساً لصورة عصره. وقد ادرك هو هذه الحقيقة وعبر عنها بقوله: «**انني لم أصنع الاحداث، بل هي التي صنعتني، إن الانسان مثل المرآة، والمرآة لا تعكس الصور الحقيقية الا اذا كانت واضحة وصافية**» غير أن الأخذ بهذه المقولة ـ حتى لو جاءت على لسان الامير ذاته ـ يحتمل تفسيراً سلبياً، وهذا التفسير يناقض الواقع. فالامير لـم يكن مجرد ـ مرآة ـ سلبية تعكس احداث بلاده وأحداث العالم، وانما كان يمارس دوراً ايجابياً في (تصنيع الأحداث) وتشكيلها. ومن هنا، فقد كان الأمير عبد القادر في حياته العامة فاعلاً ومنفعلاً، مؤثراً ومتأثراً، وعبر هذا التفاعل الدائم والمستمر ظهر الامير عبد القادر، لا ليطفح فوق سطح الأحداث، وانما ليسير مع أعمق تياراتها في محاولة منه لتحقيق الهدف الثابت (رفع راية الإسلام والمسلمين) والدفاع عن (قضية الإسلام والمسلمين) تجاه اشرس حملة صليبية عرفها التاريخ في القديم والحديث.

والأمير عبد القادر، قبل ذلك وبعده، انسان مسلم ، لا تأخـذه الاهواء، ولا تحركه ردود الفعل، وانما ينطلق في كل ممارساته من قاعدته الصلبة، قاعدة الايمان بالله، وبما أنزله على رسوله ﷺ. وقد كان هذا الايمان هو زاده في رحلته الشاقة، وهو عونه فيما جابهه من صعوبات وأزمات، تعجز عن حمل أعبائها همم الرجال، وتقصر عنها عزائم الابطال.

لم يكن الأمير عبد القادر في الحالات كلها، ممثلاً لجهاد شعب الجزائر، ولو أنه قاد الجهاد المرير والشاق فوق أرض الجزائر. فقد عرف الامير عبد القادر بصدق احساسه وصفاء نفسه ان (حرب الجزائر) لم تكن ابداً بمعزل عن الحرب الشاملة التي تخوضها الامة

الإسلامية فوق كل دنيا المسلمين. فجرد حسامه وقلمه، مدافعاً عن القضية الشاملة أينما سار وحيثما اتجه.

وعندما نزلت به النوازل والخطوب، تقبلها بايمان وصبر نافذين، إيمان الرجل المؤمن بربه، المؤمن بقدره، فكان كبيراً وهو في معتقله، وكان خصومه صغاراً وهم في أوج قوتهم وذروة انتصارهم.

وكبر الامير عبد القادر باعدائه بمثل ما كان كبيراً في قومه وبين أهله وعشيرته. واصبح الامير عبد القادر بطلاً عالمياً بعد أن كان بطلاً عربياً مسلمًا.

وامضى الأمير عبد القادر ردحاً من حياته في دمشق. وانطلق منها في زيارات قصيرة لمصر والاماكن المقدسة في الجزيرة العربية.

ثم قضى في دمشق، التي طالما غيبت أشرف السيوف، ودفنت أنبل الرايات، لتبعثها من جديد وهي أشد وضاء وأرفع سمواً واشراقاً.

ومضى قرن من الزمن؛

وبدأ القرن الخامس عشر للهجرة،

وانتصرت الجزائر المجاهدة، وتحقق لها ما يريده البطل (الامير عبد القادر) ولم ينس المجاهدون رائد جهادهم فحملوا رفاته لتستقر الى جانب رفات الشهداء الابرار - وما اكثرهم فوق أرض الحرية والأحرار.

بسام العسلي

الوجيز في حياة الامير عبد القادر

١٢٢٢ـ ١٣٠٠ هـ= ١٨٠٧ـ ١٨٨٣م

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١٢٢٢	١٨٠٧	ولادة عبد القادر بن محيي الدين بقرية (قيطنة ـ غتنا)ـ وهران.
١٢٣٨	١٨٢٢	انتهاء دراسة عبد القادرـ وحفظه للقرآن الكريم.
١٢٣٩	١٨٢٣	مرافقة عبد القادر لوالده في رحلة الحج الى الديار المقدسة
١٢٤١	١٨٢٥	التوجه للحج بعد احتجاز في الجزائر لمدة سنتين
١٢٤٤	١٨٢٨	العودة من الحج.
١٢٤٦	١٨٣٠	غزو فرنسا للجزائر
١٢٤٨	١٨٣٢	مبايعة الامير عبد القادر ومعاهدته على الإمارة والجهاد
١٢٥٠	١٨٣٤	عقد أول معاهدة بين الامير وفرنسا
١٢٥١	١٨٣٥	معركة (المقطع) اشهر معارك الامير
١١٢٥٣	١٨٣٧	عقد ثاني معاهدة بين الامير وفرنسا (تافنة)
١٢٥٥	١٨٣٩	إعلان الحرب على فرنسا بعد نقض المعاهدات
١٢٦٥	١٨٤٨	هزيمة الامير ونقله معتقلاً الى

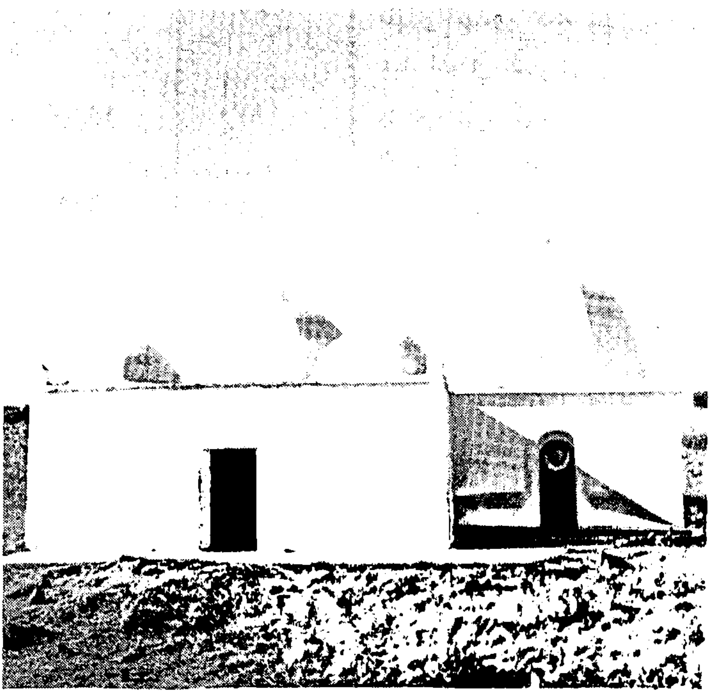
السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
		طولون ثم بو ثم امبواز.
١٢٧٠	١٨٥٣	اطلاق سراح الامير وانتقاله الى (بروسة)
١٢٧٣	١٨٥٦	انتقال الامير الى دمشق
١٢٨٠	١٨٦٣	زيارة الامير لمصر ـ ثم الحج للديار المقدسة
١٢٨١	١٨٦٤	العودة الى دمشق والاستقرار فيها ، والقيام بزيارات قصيرة للغرب (باريس)
١٣٠٠	١٨٨٣	وفاة الامير عبد القادر في دمشق

الوجيز في ابرز الاحداث المعاصرة لحياة

الامير عبد القادر

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١٢٥٦	١٨٤٠	سقوط شارل العاشر وصعود لويس فيليب في فرنسا
١٢٥٦	١٨٤٠	مؤتمر لندن لتسوية العلاقات العثمانية المصرية.
١٢٥٨	١٨٤٢	ثورة الدروز واعادة تنظيم لبنان.
١٢٦١	١٨٤٥	بو معزه يثور في الجزائر.
١٢٦٥	١٨٤٨	وفاة محمد علي باشا حاكم مصر، وتولي عباس.
١٢٦٥	١٨٤٨	سقوط لويس فيليب - وصعود نابليون الثالث
١٢٦٦	١٨٤٩	فيصل بن تركي يخرج المصريين من الحجاز
١٢٦٦ - ١٢٦٩	١٨٤٩ - ١٨٥٢	النزاع على الاماكن المقدسة في فلسطين.
١٢٧٠	١٨٥٣	حرب القرم
١٢٧٧	١٨٦٠	مذابح الستين (طوشة

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
		النصارى) وبدء العمل في فتح قناة السويس
١٢٨٦	١٨٦٩	افتتاح ترعة السويس رسمياً.
١٢٨٧	١٨٧٠	ظهور المهدي محمد بن عبد الله في السودان
١٢٨٧	١٨٧٠	هزيمة نابليون في سيدان وسقوط الامبراطورية (ثورة تموز)
١٢٩٣	١٨٧٦	الحرب العثمانية في الصرب والجبل الاسود.
١٢٩٤ - ١٣٠٥	١٨٧٧ - ١٨٨٨	الحرب الروسية العثمانية
١٢٩٥	١٨٧٨	مؤتمر برلين
١٢٩٨	١٨٨١	فرنسا تحتل تونس
١٢٩٨	١٨٨١	هزيمة عرابي باشا وبريطانيا تحتل مصر.



قبر سيدي محيى الدين والد الأمير في سيدي قاده

«لو فرشت لي مسالك فرنسا وسهولها بالديباج والذهب ووضعت في كفة وحريتي في كفة لاخترت حريتي. وإنني لا أطلب عفواً ولا إحساناً، اطلب فقط احترام العهود التي قدمت لي. لقد طلبت وعداً فرنسياً، فأجابني إليه جنرال فرنسي. ثم أكده جنرال آخر وهو ابن الملك. وبذلك أصبحت فرنسا مرتبطة إزائي، كما هي مرتبطة بما قطعته على نفسها. ولن أتخلى عما وعدتموني به، وسأموت مع وعدي حتى اكشف عن نواياكم الحقيقية»

(الامير عبد القادر في خطابه من سجنه في فرنسا إلى سجانيه)

الفصل الاوّل

الامير عبد القادر وبداية الرحلة الشاقة

١ - الأصالة وبناء القاعدة الصلبة

٢ - بناء دولة الحرب

آ - تنظيم الجيش

ب - التسلح والصناعة الحربية

ج - الحصون والتنظيم الدفاعي

د - التنظيم الإداري والتموين

٣ - بناء الدولة الإسلامية.

٤ - في أفق العمليات والتكتيك

١ ـ الاصالة وبناء القاعدة الصلبة

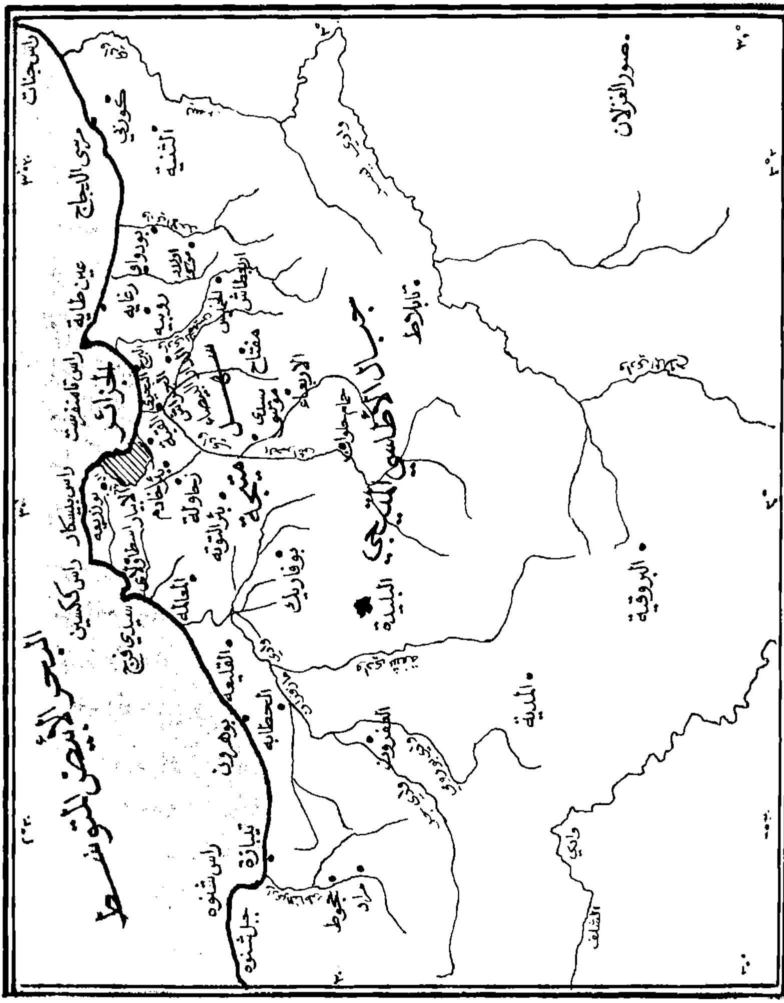
ولد مع ولادة ربيع الحياة، في يوم من ايام شهر أيار ـ مايو ـ سنة ١٨٠٧، وقد جاء الى الدنيا ليكون رابع اخوته، ولم تكن قرية (قيطنة ـ أو غتنا) المغمورة تعرف وهي تستقبل المولود الجديد انها ستكتسب شهرة ما بعدها شهرة، وستنال شرفاً ما بعده شرف إذ هي ترحب بهذا القادم الوليد. لقد بقيت قرية (قيطنة) طويلاً وهي نائمة بهدوء، على ضفة وادي الحمام في منطقة (اغريس) بالقرب من (معسكر) الى الجنوب الشرقي من مدينة وهران. وقد آن لهذه القرية أن تهتز لتستيقظ من غفوتها حتى تسير على صفحات التاريخ.

واذا كانت (قيطنة) مغمورة، فان قاطنيها لم يكونوا بالمغمورين، فقد سبقتهم شهرتهم فتجاوزت أفق الجزائر بفضل ما عرف عن كبيرها من التقى والورع والحكمة والكرم وأصالة المحتد، لقد كان شيخاً كبيراً من شيوخ المرابطين المجاهدين، اولئك الذين اشتهرت بهم ايام الاندلس واشتهروا بها، حتى اذا زالت دولة الاندلس انتقلوا الى ربوع المغرب العربي الاسلامي ليقيموا بين اهلهم وذويهم وليحملوا معهم راية الجهاد في سبيل الله، وزاد الشيخ شرفاً على شرفه انتسابه الى (الهاشميين) قرابة رسول الله ﷺ.

كان نبلاء المغرب العربي ـ الاسلامي خلال تلك الفترة ينتمون الى فئتين متميزتين: فئة المرابطين وفئة الاجواد. وكانت الفئة الاولى تستمد هيبتها ونفوذها من زعامتها (الدينية) في حين كانت الفئة الثانية تعتمد في وجودها على (السيف). ولم تكن المنافسة معدومة بين الفئتين، فكان المرابطون يتهمون الاجواد بالعنف والتهور وحب النهب، في حين كان الاجواد يتهمون المرابطين بالطموح المقنع، وبالبحث عن النفوذ والسلطة والثروة من خلال العمل للدين وللدين فقط. ولم يكن في هذه الاتهامات ما يعيب الطرفين على كل حال اذ كانت هذه الفضائل بمجموعها قاسمًا مشتركاً اكثر منها فارقاً فاصلاً، ولو أن الهدف النهائي كان مختلفاً، فالمرابطون يعملون لآخرتهم باكثر مما يعملون لدنياهم، والاجواد يعملون لدنياهم اكثر مما يعملون لآخرتهم.

فتح الوليد عينيه ليتعرف على الدنيا من حوله، فكان أول ما أدركه شدة حدب أبيه عليه وحنوه وهو يحتضنه اليه، وايثاره على أخوته، ولم يكن في ذلك ما يثير الحياء او الخوف، وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر وهو (يخاف حتى من ظله). ولعل نعومة تكوينه كانت مصدر مخاوفه فقد خلق جذاباً وسيمًا، يكاد جماله يقترب به الى الجمال الانثوي من الجمال الرجولي، له انف متوسط يبرز من وجهه بشكل رائع لا هو بالأنف الاغريقي ولا هو بالروماني، وانما هو وسط بينهما، وتحته شفتان منحوتتان بدقة ومضغوطتان قليلاً تنمان عن التحفظ المهيب والثقة بالهدف. بينما تشع عيناه الصافيتان العسليتان تحت جبهة عريضة في بياض الرخام مع نعومة مكتومة وحزينة، أو تتألقان بأشعة العبقرية والذكاء.

كان ذلك هو عبد القادر بن محيي الدين ـ المشهور بالجزائري.



البحر الأبيض المتوسط
الجزائر
جبال الأطلس البليدي
متيجة
البليدة
المدية
البرواقية
القليعة
تيبازة
بوفاريك
الأربعاء
حوش الغزلان
وادي الشلف
رأس شنوة

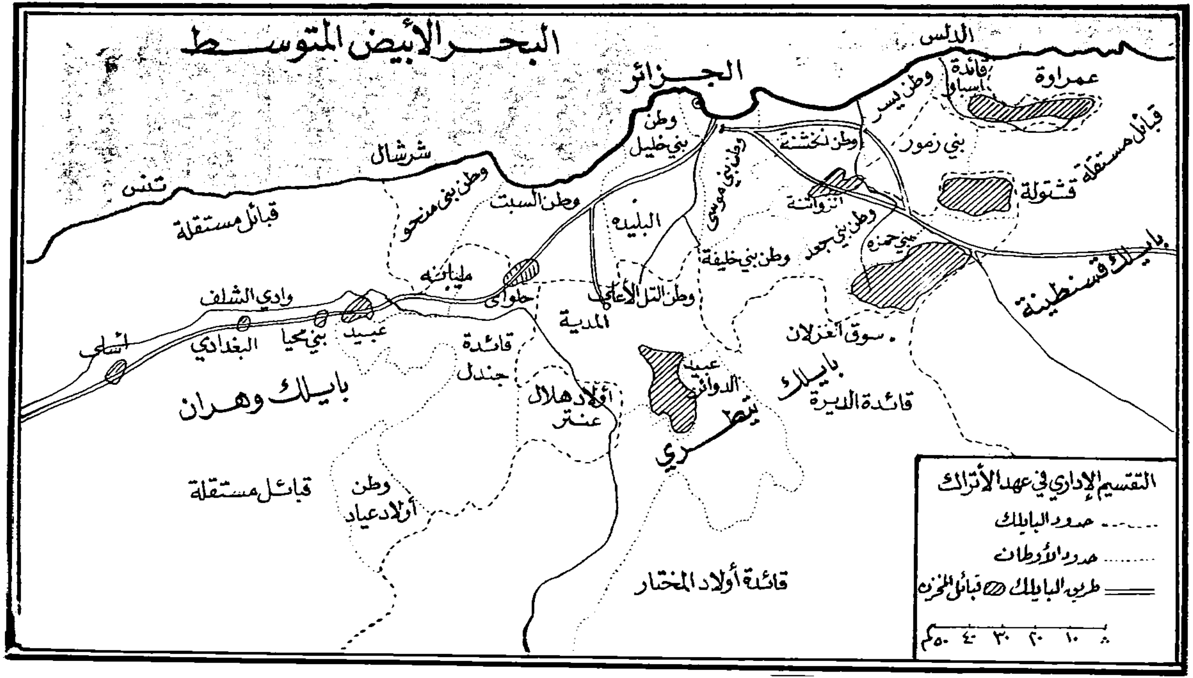
واخذت مواهب عبد القادر في التفتح مبكراً، فها هو قد أتقن القراءة والكتابة ولما يتجاوز الخامسة من عمره، وتمكن من قراءة القرآن واصول الشريعة والحديث وهو في الثانية عشرة من العمر، واصبح من حفظة القرآن وهو في الرابعة عشره حيث ارسله والده الى وهران للدراسة في مدرسة يسيرها (سيدي أحمد خوجة) غير أن عبد القادر نفر من اسلوب الدراسة بقدر نفوره من حياة وهران فلم يستقر اكثر من سنة ليعود بعدها الى (فيطنة) حيث كلف (سيدي احمد بن الطاهر قاضي آرزو) بتدريسه واطلاعه على العلوم الحديثة: علم الفلك والحساب والجغرافيا بالاضافة الى اطلاعه على الشؤون الاوروبية. ولم يجد بعد ذلك ما هو افضل من الانضمام الى جماعة رجال الدين وطلاب المعرفة ممن كانوا يلتفون حول والده ـ محيي الدين ـ لدراسة العلوم القرآنية. حيث كانت تعطى ـ مجاناً ـ دروس في الآداب والحقوق والتوحيد. ورافق هذا النضج الفكري نضج جسدي مبكر ايضاً، فما كاد يبلغ السابعة عشرة من عمره، حتى اكتملت بنيته المتناسقة (فبلغ طوله خمسة أقدام وخمسة بوصات) وأصبح له صدر عريض ومنكبين قويين، في جسد لا يعرف التعب او النصب، قادراً على احتمال أشد الصعاب. وبرز في مجال الفروسية، فكان فارساً مهيباً لا يدانيه أحد أو ينافسه، ولم يعد (يخاف من ظله) بعد ان اكد تفوقه المدهش في كل متطلبات الفروسية التي تحتاج العين الثابتة واليد القوية والرجولة الحقة. وها هو يصبح حديث الناس: إنه يلمس كتف فرسه بصدره، ويضع احدى يديه على ظهر الفرس، ثم يقفز الى الجانب الأخر، او انه يدفع الفرس الى اكبر سرعة ممكنة، ثم ينزع قدميه من الركاب، ويقف على السرج ويطلق النار على هدفه بدقة عجيبة، وبلمسته الخفيفة الماهرة يثني الفرس العربي المدرب ركبتيه،

أو يمشي مسافات على قائمتيه الخلفيتين بينما تضرب قائمتاه الاماميتان في الهواء. أو يلوح ويقفز بهما كالغزال. اما في ميدان السباق فكان يركب جواداً فاحم السواد يتضاد في لونه مع بياض برنسه، ثم يتقدم الى الحلبة ببرود ظاهر وضبط كامل للنفس، لينطلق فيسبق منافسيه بمسافات كبيرة تجعله يصل الى الهدف وحده، وسط هتافات الاعجاب وزغاريد مئات النساء. وكان كساؤه بسيطاً غاية البساطة، وليس سوى سلاحه يظهر الزينة. فقد كانت بندقيته التونسية الطويلة مرصعة بالفضة. اما مسدسه فقد كان مرصعاً بالجواهر. وكان سيفه الدمشقي مغمداً في غمد من الفضة. وكانت متعته في ممارسة هوايته المفضلة (الصيد). وأتقن صيد الباز والغزال والنعامة والخنزير البري والنمر. ولم يكن في رحلة الصيد يميل الى تلك التظاهرات الفخمة التي كان يتعمدها (الاجواد) فكان يكتفى بمرافقة خادمين او ثلاثة ويتوغل في اعماق الغابة بحثاً عن صيده المفضل (الخنزير البري) حتى اذا ما حقق هدفه، عاد من رحلته الرياضية ليعزل نفسه للدراسة بحيوية متجددة، وللتفرغ للعبادة. واشتهر بقدرته (على النوم خلال اسابيع والتعرض للصدام، وندرة اغماد سيفه ـ فكان عرشه قائماً على سرج جواده) ولم يكن ذلك الا نتيجة لتلك المواهب الفطرية التي صقلتها المكتسبات الفكرية والجسدية.

وتزوج عبد القادر وهو لا يزال يافعاً، التزاماً بالحديث الشريف «من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أحصن للفرج» وكانت زوجته (لالة خيرة) بنت عمه سيدي علي بو طالب. وكان على هذه الزوجة الفاضلة ان تحتمل مع زوجها مشاق الرحلة الطويلة ـ رحلة العمر في الجهاد.

بلغ محيي الدين والد عبد القادر الخمسين من عمره، فاراد أداء

فريضة الحج، واتخذت استعدادات كبيرة للحدث الهام، ورغب الكثيرون في مرافقة الشيخ المرابط للحج، وفي طليعتهم ابناؤه وحاشيته. وقرر (محيي الدين) الخروج وحده تخلصاً من الموقف الحرج، غير انه عاد فعدل عن قراره، واعلن ان (عبد القادر) هو الوحيد الذي سيرافقه، ورضخ الجميع لهذه الارادة وقلوبهم يغمرها الحزن. وغادر الاب والابن قريتهما (قيطنة) في تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٨٢٣. وما ان انتشرت اخبار عزم (محيي الدين) على الحج حتى ترددت في كل انحاء وهران صيحة (الى الحج.. الى الحج) وأقبل الآلاف من كل الجهات وهم يحملون خيامهم ومتاعهم، وتجمع الركب الكبير على ضفة نهر جديوية في (سهل شلف) وارعبت هذه التظاهرة حاكم (وهران). فأرسل الى (محيي الدين) يستدعيه لمقابلته. وامتثل (محيي الدين) فتوجه مع (ابنه عبد القادر) الى وهران، وكانت المقابلة ودية، غير أن حاكم وهران الزم ضيفيه (محيي الدين وابنه) بالبقاء في وهران بما يشبه الاقامة الاجبارية، حتى اذا ما مضت سنتان، وعرف حاكم وهران ان مخاوفه لا تستند الى أي اساس مقبول، علاوة على ما كانت تثيره عملية (الاحتجاز) من ردود الفعل السيئة التي وصلت الى (ديوان الباشا) وحتى الى (منزله) حيث وقفت ام الداي وزوجته ضد هذا الاجراء التعسفي، فقرر الداي السماح (للمحتجزين) باستئناف رحلة الحج. وعندها قرر (محيي الدين) عدم العودة الى (قيطنة) مرة اخرى لوداع اسرته حتى لا تتكرر قصة (الحشد المرعب) فغادر وهران بسرعة في تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٢٥. ووصل ومعه عبد القادر الى تونس مارين (بالمدية وقسنطينة) وهناك انضما الى قافلة تضم الفي حاج، ركبوا جميعاً البحر الى الاسكندرية. وكانت هذه الرحلة مثيرة جداً للشاب عبد القادر الذي أخذ في


البحر الأبيض المتوسط
الجزائر
الدلس
عمراوة
قائدة إسباو
وطن يسر
بني زمور
قبائل مستقلة
قشتولة
وطن لخشنة
وطن بني خليل
وطن بني موسى
انزواتة
وطن بني جعد
بني جمزه
بايلك قسنطينة
شرشال
تنس
قبائل مستقلة
وطن بني منحو
وطن السبت
البليده
وطن بني خليفة
مليانه
حلواى
وطن التل الأعلى
المدية
سوق الغزلان
وادي الشلف
عبيد
بني محيا
البغدادي
اسلي
قائدة جندل
أولاد هلال عنتر
عبيد الدوائر
بايلك تيطري
قائدة الديرة
بايلك وهران
قبائل مستقلة
وطن أولاد عياد
قائدة أولاد المختار
التقسيم الإداري في عهد الأتراك
حدود البايلك
حدود الأوطان
طريق البايلك
قبائل المخزن
٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٠ كم

الاطلاع على (عالم جديد) لا سيما عندما توجه من الاسكندرية الى القاهرة، حيث رأى عبد القادر للمرة الاولى والاخيرة محمد على باشا حاكم مصر الذي طبقت شهرته الأفاق، وأخذ يتأمل طويلاً في هذا الجندي الناجح الذي عرف بكفاءته الادارية التي كانت تنافس كفاءته العسكرية. واكمل محيي الدين مع ابنه رحلة الحج، فكانت متعة روحية لا توصف وبعد اداء مناسك الحج في مكة المكرمة والمدينة المنورة، انفصلا عن الحجيج ويمما شطر دمشق، ليقضيا معظم وقتهما في التردد على الجامع الاموي الكبير، وليفيدا من هذه المناسبة لقراءة الحديث وتدارسه مع الشيخ عبد الرحمن الكزبري. وكان لا بد لهما وهما في دمشق من اكمال الرحلة بزيارة قبر الصالح (عبد القادر الجيلاني ـ حارس الجزائر) فتوجها الى بغداد عن طريق تدمر ووصلاها بعد ثلاثين يوماً. ولما كانا من عائلة شهيرة بالهدايا الثمينة التي تقدم بها كثير من اعضائها الى قبر الصالح الجيلاني، فانهما لقيا استقبالاً حاراً كريماً من قاضي المدينة (السيد محمد الزكريا) الذي كان ينحدر بدوره ايضاً من الولي الصالح الجيلاني، وقدم (محيي الدين) كيساً من الذهب، على ما جرت به عادة المرابطين تجاه احياء ذكرى هذا الرجل الصالح الذي لا يشك احد من المرابطين بكراماته(١). وبعد اقامة في بغداد لمدة ثلاثة اشهر، ارتحل محيي الدين وابنه عبد القادر في طريق

(١) اشتهر الصالح (عبد القادر الجيلاني) بجهاده في القرن الثاني عشر، وكان له مقامات اثرية ـ تذكارية ـ في معظم بلاد المشرق، وقد نسجت حكايات كثيرة عن كراماته. ويذكر ان (مصطفى بن المختار) جد عبد القادر، قد زار اكثر من مرة ضريح (عبد القادر الجيلاني) واجازه الشيخ مرتضى الزبيدي، وهو الذي انشأ قرية (قيطنه ـ أوغتنا) ونشر الطريقة القادرية في الغرب الجزائري، ومات اثناء عودته من الحج، ودفن في (عين غزالة) قرب (برقة) بليبيا سنة ١٢١٢ هـ وأثناء عودة محيي الدين وولده من الحج بالبر توقفا لزيارة قبره.

العودة، وقد نفذت مواردهما، فكان لا بد لهما من اكمال الرحلة على نفقة اخوانهم المسلمين، الحجاج مثلهما والذين كانوا عائدين من اداء الفريضة، وانتهت الرحلة بالوصول الى (قيطنة) بعد غياب استمر اكثر من سنتين وكان ذلك في بداية سنة ١٨٢٨ م. وعرفت (قيطنة) احتفالات وولائم لم تشهدها من قبل فقد توافد كل عرب وهران ووفود تمثل القبائل الصحراوية بزيارة (سيد بني هاشم) وتهنئته بالحج والعودة بالسلامة. ولم يعد الهدوء الى (قطنة وادي الحمام) الا بعد فترة طويلة.

كان لهذه الرحلة الروحية اثرها العميق في اعماق نفس (الشاب عبد القادر) الذي أخذ في الاعتزال عن الناس، والانصراف الى العبادة، وقضاء الوقت في الرياضات العقلية التي تضمها مؤلفات القدماء امثال افلاطون وفيثاغورس وارسطو، علاوة على مؤلفات كبار المشاهير من اعلام المسلمين والتي شملت علوم التاريخ الاسلامي والفلسفة واللغة والفلك والجغرافيا والطب فتكونت لديه خلال هذه الفترة مكتبة ضخمة كانت هي ثروته الدنيوية، وقد استمرت هذه الهواية في مرافقته طوال حياته.

اقتحمت جحافل الغزو الافرنسي الاستعماري مدينة (الجزائر المحروسة) يوم ٥ تموز (يوليو) ١٨٣٠ واستقبل المجاهدون هذا الحدث بثبات، دون أن يداخل نفوسهم أي شعور بالخوف أو القلق، فقد ارتفعت رايات الغزاة الاسبانيين من قبل فوق معظم المدن الساحلية، غير أنها لم تلبث أن سقطت ممرغة بالوحل، وتعرضت مدن الجزائر لإغارات بحرية كثيرة، دحرت كلها وتراجعت، وظن رجال القبائل، وابناء المدن الداخلية للوهلة الاولى أن القضية لن تكون أكثر من قضية غزوة عابرة، أو

أنها في أسوأ الاحوال، لن تتجاوز حدود الصراع مع جهاز الحكم (التركي العثماني). غير أن النوايا الافرنسية تكشفت بسرعة، عندما اخذت الادارة الاستعمارية في التطلع الى ما وراء المدن الساحلية، وزاد الأمر سوءاً بما أقدمت عليه جحافل الغزو من (أعمال إبادة وحشية). وبدأت الغشاوة في السقوط عن أبصار اولئك الذين تعاونوا في بداية الأمر مع السلطات الاستعمارية أو حتى هادنوها. ولم تلبث قوات المرابطين وقياداتها أن رفعت (راية الجهاد في سبيل الله) وكان ذلك بداية تطوير الصراع المسلح.

رافق الغزو الافرنسي انتشار موجة من الفوضى والاضطراب وانقطاع حبل الأمن، وتشردت جموع المسلمين الذين كانوا يسكنون المدن الساحلية وهربوا بدينهم وعائلاتهم نحو الداخل وقد سيطر عليهم الذعر واليأس. وزاد من بؤسهم تعرضهم لقطاع الطرق الذين اخذوا في نهب هؤلاء المشردين والتعرض لهم دونما شفقه أو رحمة. ولم يكن باستطاعة شيخ المرابطين (محيي الدين) البقاء في عزلته وتجاهل المأساة التي نزلت بالمسلمين. فأرسل اولاده مع حامية قوية للتجول في السهل وحماية المشردين المنكوبين، وتقديم الدعم لهم، وحملهم الى أماكن مأمونة لا تصل اليها عصابات اللصوص وقطاع الطرق. غير أن عملية الانقاذ هذه كانت دون المستوى المطلوب في تلك الفترة الحرجة لا سيما وقد ظهرت الثارات المدفونة بين رجال القبائل، في المدن والقرى، فبات من الضروري اخضاع البلاد لسلطة قوية تحركها يد واحدة. وعقد المرابطون مشاورات طويلة لدراسة الموقف، فاتفقت كلمتهم على اللجوء الى (محيي الدين) واستشارته في أنجح وسيلة لعلاج الأزمة. وعندما اجتمع المرابطون، خاطبهم محيي الدين ناصحاً بالعبارات التالية: «منذ عدة شهور وأنا أحاول كما تعلمون جيداً،

المحافظة على درجة من النظام وسط الفوضى العامة التي تسود الآن. ولكن اقصى الجهود التي بذلتها لم تفلح في انقاذ اكثر من عدد قليل من الضعفاء والمشردين وحمايتهم من ايدي أناس قساة غلاظ. إن طغيان الاتراك قد كبح طاقاتنا وأوهنها، ولكن اذا استمرت الامور على ما هي عليه الآن، فانها ستحطم كل طاقاتنا تحطيمًا. فأواصر المجتمع تنحل، ورفع كل فرد يده في وجه جاره. وأرضى شعبنا العنان لغرائزه الرذيلة بعد ان أصبح يستهتر يومياً بقوانين الله والانسان. وفي نفس الوقت، فان النكبات التي تهددنا من الخارج لا تقل خطراً عن ذلك الذي ينهشنا من الداخل. فهل سنستنجد بالافرنسيين؟ ان ذلك غير ممكن. وان الاستسلام اليهم يعتبر خيانة لواجبنا نحو إلهنا ووطننا وعقيدتنا فما بالكم بالاستنجاد بهم؟. ولكن الافرنسيين أمة محاربة، قوية العدد، واضحة الغنى، تشتعل حباً في الاحتلال، وماذا لدينا نحن من قوة نصدهم بها؟ ان القبائل على خلاف مع بعضها. وزعماء البلاد شرهون يتآمرون ضد بعضهم، ولا يصارعون الا من اجل الثروة الشخصية. اما الدهماء التي رمت عنها كل قناع فبعضها قد أغنى نفسه بالنهب، وبعضها الآخر لا يكاد يجد قوت يومه. فالطرفان غير متعادلين. وأمام هذه الحالة، فحتى تصور نجاح المعركة مع الكفار يعتبر حماقة. أما محاولة المعركة نفسها فهو جنون.

لا، ان الملك الافرنسي قوياً، ولا يمكن أن يواجهه بفاعلية الا ملك مثله، على رأس دولة محكمة النظام، يملك خزانة ضخمة، ويقود جيشاً تام الانضباط. وليس هناك حاجة الى أن نذهب بعيداً للبحث عن هذا الملك. ان سلطان المغرب قد عبر عن عاطفته نحونا، ويجب أن يعرف أن الخطر الخارجي الذي يهددنا نحن اليوم قد يهدده هو غداً. ان حضوره بيننا سيشجع ويدعم حالاً الخير، ويصرف

الشر. وبفضل ذلك، سيقوى النظام. واذا حاربنا تحت لوائه، فسنتقدم نحو انتصار مؤكد».

وتوجهت بعثة جزائرية نحو (فاس) وهي تضم عشرة افراد من كبار شيوخ المرابطين واكثرهم نفوذاً وتأثيراً. ومضت ستة أشهر قبل أن يعلن سلطان فاس عن موافقته على ما طلبه اليه شيوخ المرابطين. ووجه جيشاً بقيادة ابنه (علي) ومعه (٥) آلاف فارس ومدفعيّ ميدان وعسكر هذا الجيش في تلمسان (الواقعة في اقليم وهران). وأسرعت القبائل فاعلنت ولاءها لسلطان المغرب. وأخذت المقاومة في التعاظم، وادركت الحكومة الافرنسية ما يتهدد مشاريعها من خطر، فوجهت تهديدها الى سلطان المغرب الذي اظهر خضوعه للتهديد فأمر (ابنه علي) بالانسحاب الى ما وراء الحدود المغربية. واجتمع شيوخ المرابطين، وقرروا اسناد منصب السلطان على (محيي الدين) وتوجهوا في جماعة منهم الى (قيطنة). غير ان (محيي الدين) رفض العرض بتواضع، وأوصى بتوجيه نداء جديد الى المغرب. وفشلت هذه المحاولة باقناع (سلطان المغرب) بتحمل مسؤوليته التاريخية. واتجهت الانظار مرة اخرى نحو (محيي الدين) الذي لم يتمكن من رفض طلبات شيوخ العرب فقال لهم: «انني لا أصلح أن أقوم بواجبات سلطان العرب. ولكنني سأقوم بما يحتمه علي الدين. وسأذهب معكم الى الجهاد». وكان العرب قد بذلوا محاولات متعددة لاستعادة وهران التي احتلتها قوات الافرنسيين. فقام محيي الدين بدخول المعركة تحت قيادة ابنه عبد القادر.

كانت قد مضت فترة على العرب وهم يحاصرون (وهران) ويركزون جهدهم بصورة خاصة على (قلعة فيليب) الواقعة الى جنوب المدينة، غير ان هذه الاغارات لم تؤد الى نتيجة تذكر، فقرر (عبد

القادر) تنفيذ عملية ضد هذه القلعة ووضع الخطة وأشرف على تنفيذها، فقاد قواته من المشاة والفرسان حتى وصل بها الى اسفل القلعة ذاتها، وزج بجنود المشاة في الخنادق وكلفهم بمناوشة الحامية الافرنسية المدافعة عن القلعة. ثم قاد قوة الفرسان ووضعها في موقع مناسب يتحكم بالطريق المؤدي الى القلعة، وذلك لعزلها، ومنع أي تسلل قد يقوم به العدو. وكانت الكثافة النارية لاسلحة الافرنسيين وقذائفهم كبيرة الى درجة كافية لتمزيق افضل الجيوش انضباطاً وتدريباً. غير أن عبد القادر استطاع اثارة حماسة المجاهدين وهو يتجول بينهم، ويوجههم، وامكن له بذلك التغلب على الصدمة النارية. واثناء ذلك، نفدت ذخيرة المجاهدين في الخنادق ـ المشاة ـ واحجم كل فرد عن التحرك لجلب الذخيرة. وشاهد ذلك (عبد القادر) فصاح بهم: (ايها الجبناء! اعطوني الخرطوش) ووضع الظروف في جناحي برنسه، وركب فرسه وعبر السهل كالسهم حتى وصل القلعة، فرمى بالخرطوش في الخندق. وحث رجاله على الثبات والاستمرار في الرمي. وعاد بدون ان يمسه اي اذى. واحاطت (بعبد القادر) مناسبات كثيرة مليئة بالخطورة والمبادرة. استعمل فيها سيفه البكر للدفاع عن نفسه. وأدت شجاعته وفروسيته لا الى الثناء عليه فقط، بل الى الاعجاب المنقطع النظير به. واخذ العرب ينظرون اليه باكبار، ويحيطونه بهالة من التكريم، بعد أن أخذت شخصيته الوسيمة تندمج بشخصيته الشجاعة عندما كان يتقدم الصفوف دونما خوف من اذى، ليقتحم مواطن الخطر، فهو مرة يمر كالسهم من صفوف الرماة الاعداء. ومرة يطلق النار ويكتسح حربات البنادق بسيفه، واخرى يقف بثبات عجيب والقنابل تتفجر من حوله وتحت قدميه. وافادت العرب من هذه التجربة القتالية قدر افادتها من تجاربها السابقة،

ادركت ان هذا الهجوم المفكك ليس حرباً. وان كل جهودهم وتضحياتهم لن تكون مثمرة الا اذا وجهتها ارادة واحدة تحت قيادة قائد مسؤول. وعقد مؤتمر كبير في مدينة (معسكر). ودعي (محيي الدين) الذي كان قد توجه الى (قيطنة) لقضاء فترة قصيرة من الراحة، لحضور هذا الاجتماع. فلبى الدعوة وما كاد يصل ويترجل حتى تجمهر من حوله شيوخ المجاهدين وارتفعت الاصوات من كل مكان: «الى متى يا محيي الدين ونحن بلا قائد؟ الى متى وانت واقف متفرج على حيرتنا؟ انت يا من يكفي اسمه فقط ان يجمع كل القلوب لتشجيع القانط وردع الخبيث، وتدعيم وتماسك القضية المشتركة؟ لقد سقط أفضل فرساننا غمًا وفرقاً؟ واستل شيوخ المرابطين سيوفهم ونادوه (اختر بين ان تكون سلطاننا أو ان تموت الان..)

كان الموقف مثيراً، غير ان شيخ المرابطين جابهه بثبات، فوقف يخاطب زعماء المرابطين بقوله: «تعرفون جميعكم انني رجل عبادة وتقوى. ويتطلب الحكم استخدام القوة والعنف وحتى سفك الدماء. ولكن ما دمتم تصرون على أن أكون سلطانكم فاني أقبل، ولكن أتنازل عن ذلك لصالح ابني عبد القادر». واستقبل الحضور هذا الحل المباغت بالموافقة. فقد كان عبد القادر معروفاً لديهم. وتوجه فارس الى (قيطنة) لاحضاره. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، الموافق ٢١ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٨٣٢ م. دخل عبد القادر مدينة (معسكر). وقد غصت كل الشوارع والطرق المؤدية الى المدينة بجموع المسلمين. وكان الرجال والنساء والاطفال يتبادلون التهاني في مظاهرة ترحيب بهجة بسلطانهم الجديد. وبعد ادخاله الى (الرحبة) حيث كان المجلس منعقداً، اعلم عبد القادر بكل ما حدث. وفي هدوء، ودونما زهو، اجاب عبد القادر: «ان من واجبي

اطاعة أوامر والدي ـ أنا لها، أنا لها» وانفجرت حماسة الناس وصاحوا بصوت واحد: «الحياة والنصر لسلطاننا عبد القادر». وجلس السلطان الشاب للناس يتقبل بيعتهم، وكان أبوه اول من بايعه ولقبه (بناصر الدين). وعندما أزفت صلاة الظهر قام بالناس إماماً، ثم خطب فيهم، وشرح لهم الاخطار المحيطة بهم، وما كاد ينهي حديثه حتى ارتفعت صيحات (الجهاد ـ الجهاد) (لبيك عبد القادر، فكلنا رهن اشارتك).

ذهب عبد القادر في اليوم التالي (٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر) الى وادي خصيبية الذي يبعد مسافة عشر دقائق عن (معسكر). حيث كان في انتظاره عشرة آلاف فارس عربي لاستقباله والترحيب به. وكانوا قد اصطفوا على شكل هلال، بحسب قبائلهم، حول خيمة ضخمة اقيمت وسط السهل. وكان جميع اهالي معسكر قد تجمعوا ايضاً في المنطقة. وفي اللحظة التي بدأت فيها اشعة الشمس المائلة تنبسط على جبل (مسمط)، ظهر موكب عبد القادر. تتقدمه كوكبة من الفرسان حاملي (راية الجهاد) ثم تبع ذلك رؤساء بني عامر وبني مجاهر وبني يعقوب وبني عباس على صهوات خيولهم المندفعة، وهم يحملون سيوفهم اللامعة. ثم ظهر عبد القادر وهو يغطي كتفيه ببرنسه الاحمر، وممتطياً جواده الاسود، وكان رؤساء بني هاشم (قبيلته) يسيرون في مؤخرة الموكب العظيم. وعندما وصل عبد القادر الى (الخيمة) ترجل، واختفى عن الانظار دقائق قليلة، ثـم خرج وابوه محيى الدين يمسك بيده ليقدمه الى الشعب: «انظروا ـ هذا هو السلطان الذي اعلنته النبوءة! هذا هو ابن الزهراء! اطيعوه كما لو كنتم تطيعونني! فليحفظ الله السلطان» وردد الناس: حياتنا واملاكنا وكل ما عندنا له، لن نطيع قانوناً غير قانون سلطاننا عبد القادر واجاب عبد القادر: وانا

بدوري لن آخذ بقانون غير القرآن، لن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، والقرآن وحده. فلو ان أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات. وانطلق (عبد القادر) ليستعـرض القوات، وليقف بين فترة واخرى ليردد على مسامع الجميع اهداف العهد الجديد: (الجهاد الجهاد! لا حرية ولا استقلال الا بالجهاد! الجنة تحت ظلال السيوف! هلموا جميعاً الى راية الجهاد).

عاد (عبد القادر) الى (معسكر) بعد نهار شاق كان اشبه (بعرس المجد) وما كاد يستريح قليلاً حتى استدعى (كتابه) واملى عليهم اول بيان له، هو التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. الى القبائل، وخصوصاً نبلائها وشيوخها واعيانها وعلمائها. هداكم الله وارشدكم ووجهكم الى سواء السبيل، وجعل النجاح حليف اعمالكم ومسعاكم. وبعد: ان اهالي معسكر، واهالي شرق غريس وغربها، وجيرانهم وحلفاءهم بني شقران والبرجيين وبني عباس واليعقوبيين وبني عامر وبني مجاهر وغيرهم قد وافقوا بالاجماع على تعييني، وبناء عليه انتخبوني لادارة حكومة بلادنا. وقد تعهدوا ان يطيعوني في السراء والضراء، وفي الرخاء والشدة، وان يقدموا حياتهم وحياة أبنائهم وأملاكهم فداء للقضية المقدسة. ومن أجل ذلك، اذن، تولينا هذه المسؤولية الصعبة ـ على كره شديد ـ آملين أن يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين، ومنع الفرقة بينهم، وتوفير الامن العام الى كل اهالي البلاد، ووقف كل الاعمال غير الشرعية التي يقوم بها الفوضويون ضد المسلمين. وصد العدو الذي اعتدى على بلادنا حتى يتم طرده، وحتى لا يتمكن من ان يغل

أعناقنا بقيوده. ولقبول هذه المسؤولية اشترطنا على كل اولئك الذين منحونا السلطات المطلقة، ان عليهم دائماً واجب الطاعة. في كل أعمالهم، التزاماً بنصوص كتاب الله وتعاليمه، والى الحكم بالعدل في مختلف مناطقهم، والاخذ بسنة النبي ﷺ في المساواة بين القوي والضعيف، الفقير والغني دونما محاباة، وقد قبلوا بهذا الشرط.

لذلك! ندعوكم الى المشاركة في هذا العهد والعقد، بيننا وبينكم، سارعوا لاعلان الولاء والطاعة. وجزاؤكم على الله في الدنيا والآخرة. ان هدفي الاساسي هو الاصلاح. وعمل الخير ما دمت حياً. ان ثقتي في الله، ومنه وحده أرجو التوفيق والنجاح».

بأمر من المدافع عن الدين، صاحب السيادة علينا، أمير المؤمنين عبد القادر محيى الدين ـ نصره الله ـ آمين.

حرر في مدينة معسكر ٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٥٢ م

لقد تحققت النبوءة، وأصبح الحاج عبد القادر سلطاناً بايعته الجزائر بسيوفها وقلوبها. واغمض (عبد القادر) عينيه وتذكر زيارته لضريح (عبد القادر الجيلاني) في بغداد. ففي تلك الفترة، حلم (محيي الدين) بان «ملاكاً وضع مفتاحاً في يده، واخبره ان يسرع بالعودة الى وهران. وعندما سأله عما يفعله بهذا المفتاح اجابه الملاك: ان الله سيوجهك» وفسر محيى الدين هذا الحلم بانه كرامة من كرامات الصالح (عبد القادر الجيلاني) اختصه بها لتولي وهران وتكررت مثل هذه الشواهد الغامضة التي تشير الى ان (عبد القادر بن محيى الدين) سيصبح ذا شأن في قومه. ولم تمض فترة حتى سرت نبوءة غربي البلاد بأن شاباً عربياً سيصبح سلطاناً ويقيم العدالة بين الناس.

وعرف عبد القادر أن ما وصل اليه اليوم ان هو الا نتيجة ما توافر له من الاصالة التي لم ينكرها او يتنكر لها، فحددها بقوله:

«انني عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار ابن عبد القادر بن احمد بن محمد بن عبد القوي بن يوسف بن أحمد بن شعبان بن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن فاطمة بنت محمد رسول الله وزوجة علي بن أبي طالب عم الرسول. كان اجدادنا يقطنون المدينة المنورة، وأول من هاجر اليها هو ادريس الاكبر الذي أصبح فيها بعد سلطاناً على المغرب، وهو الذي بنى (فاس). وبعد ان كثر نسله، توزعت ذريته، ومنذ عهد جدي فقط، قدمت عائلتنا لتستقر في (اغريس) قريباً من (معسكر) واجدادي مشهورون في الكتب والتاريخ بعلمهم واحترامهم وطاعتهم لله»(١)

ولكن، ومع معرفة (الامير عبد القادر) لهذه الحقيقة التي يحق له أن يفتخر بها ويفاخر، فقد أدرك ان ما وصل اليه، يتطلب منه العمل والجهد، حتى يكون جديراً بشرف الأجداد، وها هو يقول:

«لا تسألوا ابداً ما هو أصل الانسان وفصله، بل اسألوا حياته، وأعماله وشجاعته ومزاياه، وعندئذ تدركون من يكون».

فالعمل هو الذي يشهد على قيمة الرجل، وها هو رجل الموقف ينطلق للعمل.

---

(١) الامير عبد القادر ـ سلسلة الفن والثقافة ـ وزارة الاعلام والثقافة ـ الجزائر ١٩٧٤ ص (١٠).

٢ ـ بناء دولة الحرب

تلقى (عبد القادر) البيعة تحت شجرة الدردار (الدرردرة) الضخمة، وهي الشجرة التي طالما اعتاد الأعيان على الالتقاء تحت ظلها، للشورى، كلما دهمهم خطب، أو بغتتهم نائبة، فيجمعهم (وادي مروحة ـ من قبيل غريس) ليخرجوا وقد استمدوا من ضعفهم قوة، وتجمعوا من بعد تفرق. غير أن تجمعهم في هذه المرة تمخض عن أمر جلل، لقد أسندوا قيادتهم الى عبد القادر وحددوا له مهمته: «اننا في حاجة لمن يقود سفينتنا ويقف في وجه العدو في الداخل والخارج ليذيقه العا اب، ولهذا فقد اتفق العام والخاص على اسناد الإمارة لعبد القادر بن محيى الدين».

اراد المرابطون والمجاهدون أن يكون (عبد القادر بن محيى الدين) سلطاناً عليهم، وبايعوه على ذلك، وتبعهم رجال القبائل على هذه البيعة، غير أن (عبد القادر) عزف عن (لقب السلطان) حتى يكسب صداقة سلطان مراكش (المغرب) واكتفى بلقب (أمير المؤمنين) وهو لقب ألصق بمفهومه للحكم، وأقرب الى أصالته العربية ـ الاسلامية. ثم مضى الى بناء (الدولة الحديثة) التي يمكن لها مشاركته

في حمل اعباء الحرب، ورفع راية الجهاد في سبيل الله، خلال تلك المرحلة التاريخية.

بدأ (الامير عبد القادر) مرحلة التنظيم بتشكيل جهاز الحكم (الوزارة) والتي تكونت كالتالي:

١ ـ رئيس وزراء ـ ويقوم بهذه المهمة الامير عبد القادر (ناصر الدين)

٢ ـ نائب رئيس
٣ ـ وزير خارجية
٤ ـ وزير خزانة المملكة
٥ ـ وزير الخزينة الخاصة
٦ ـ وزير الأوقاف
٧ ـ وزير الاعشار والزكاة

ثم يأتي بعد الوزراء الكتبة، وهم ثلاثة حسب الحاجة، ثم الحاجب، واتخذت هذه الوزارة من مدينة معسكر مقراً لها. واختار الامير لشغل هذه المناصب افضل الرجال ممن تتوافر لهم الكفاءة العلمية والخبرة الفنية والمهارة السياسية والقدرة القيادية الى جانب الفضائل الخلقية والدينية قبل كل شيء، وبذلك استطاع الوزراء الاضطلاع بمسؤولياتهم على أفضل وجه ممكن، فلم تمض اكثر من فترة قصيرة حتى اشتهرت عن جدارة بانها (من افضل الوزارات التي عرفها القرن التاسع عشر). واختار الامير لحاشيته الخاصة رجالاً عرفوا بأنهم من اخلص قادة البلاد العسكريين، ومن العلماء والقضاة، فكون منهم

(مجلساً للشورى) بلغ عدد افراده أحد عشر عضواً يمثلون المناطق المختلفة، وجعل على رأسهم (قاضي قضاة الجزائر) . وما كاد يفرغ الامير من تنظيم أجهزة الدولة ، حتى أرسل الى عمال الحكومة السابقة (في العهد التركي) والذين لا زالوا في مناطق لم يغتصبها الاستعمار الافرنسي، طالباً اليهم الامتثال الى (الطاعة والجماعة).
حاثاً إياهم على إعلان الولاء للحكومة الجديدة ، والرجوع اليها في كل امورهم. فاستجابت له الاغلبية الساحقة ، واعربت عن غبطتها بالخضوع لطاعته. أما الذين أبوا الدخول في طاعة الامير الجديد، مغتنمين الذعر والفوضى التي انتشرت في البلاد على اثر احتلال العدو لبعض مناطقها فقد اختاروا الاستقلال بادراتهم تدفعهم الى ذلك شهوة التحكم والطمع، غير مبالين بما يحدق بالبلاد من خطر مدمّر، وما يترتب على عصيانهم من تشتيت لوحدة الشعب، وتبديد لقوته، في الوقت الذي كان فيه العدو يجند كافة موارده ويحشد جميع قواته لاجتياح الوطن الجزائري. هؤلاء المارقون، سرعان ما أفحمهم الأمير بالمنطق أو أخضعهم بالقوة، مستدركاً الخطر الذي ينتج عن عنادهم. وعين في مناصبهم رجالاً توافرت لهم الكفاءة والقدرة والعدل والإخلاص.
وبذلك استقرت الأمور الجديدة، وبدأت تعمل جاهدة على أرساء قواعد الحكم النزيه على أسس متينة قوامها الدين الإسلامي وقواعده وأسسه الفاضلة. وكان أول عمل قامت به الحكومة هو الاعلان عن الغاء المظالم. وإبطال القوانين التي كانت تفرض على المواطنين الجزائريين بين ضرائب ثقيلة ومغارم مرهقة. وأزال ما كان يعرف (بقبائل المخزن) فحقق المساواة بين كل المواطنين أمام القانون. وضبط نظاماً بسيطاً للحكم، وأنقص ما يمكن من الوسطاء، بهدف الوصول إلى أكبر، وتأمين السرعة في التنفيذ، ومنح أعضاء الحكومة سلطات

واسعة، وحرص في الوقت ذاته على مراقبة ممارساتهم. وحدد للموظفين رواتب كافية حتى لا تمتد أيديهم إلى الحرام (الاختلاس والابتزاز). وكانوا مسؤولين أمام الأمير، كما كانت الرقابة الشعبية- بلغة العهود الحديثة- مطبقة بصورة شاملة، حيث كان منها ديةً يرفع صوته بين القبائل وفي الأسواق، داعياً الناس لممارسة هذا الحق بقوله: «**من كانت له شكوى على الخليفة أو الآغا أو القائد أو الشيخ، فليرفعها الى الديوان الأميري من غير واسطة، فان الأمير ينصفه من ظالمه ومن ظلم فلم يرفع ظلامته إلى الأمير فلا يلومن إلا نفسه**» وقد أكد مفهومه في مشاركة الشعب في الحكم من خلال رسالته التي كتبها إلى ملك فرنسا- لويس فيليب- والتي قال له فيها: «**عليك أن تعلم أن أي إجراء لن يكون صالحاً إذا لم يحظ بمصادقة الشعب**».

يمتد الوطن الجزائري على مساحة جغرافية واسعة، على ما هو معروف، ولم تكن وسائط الاتصالات متوافرة، بمثل ما اصبحت عليه اليوم، ولهذا عمل الامير عبد القادر على اعادة تقسيم البلاد الى مقاطعات وهذه الى دوائر، ووضع في كل منها آغا، وهذه الدوائر تشمل على القبائل النازلة فيها، وتشمل القبيلة على (بطون وعشائر). فجعل على كل قبيلة قائداً وعلى كل بطن وعشيرة شيخاً. فكانت الأوامر الاميرية تصدر الى العمال المعروفين (بالخلفاء) ومنهم الى الأغوات، ومنهم الى القواد ومنهم الى المشايخ. ويقوم المشايخ برفع القضايا التي تحدث والمشكلات التي تقع الى القواد، وهم يرفعونها الى الآغوات ومنهم ترفع الى الخلفاء، ثم تعرض على الحضرة الاميرية، وفي وقت الحرب يصبح هؤلاء الرؤساء قادة عسكريون، فيجمع كل منهم جماعة من عشيرته ويقودها الى الحرب. وكان (الامير عبد القادر) يحرص عند تجميعه للقبائل على ما بينها من روابط، وعلى

ما يربطها ببيئتها المقيمة فوقها من روابط جغرافية وتاريخية. فلم يكن يتردد في تحويل بعض القبائل خوفاً عليها من الضعف تجاه ترغيب العدو وارهابه، وكان وهو يمارس ذلك كله يدرك تماماً أهمية التنظيم. وقد عبر عن ذلك بقوله:

«كانت أوامري تصل الى الخلفاء، ومنهم تنزل في تسلسل مضبوط الى المشايخ، ثم ترفع تقارير المشايخ بنفس التسلسل، الى أن تصل إلي. لقد كان هدفي هو طرد المسيحيين من أرض آبائنا. وكنت دوماً أتحاشى استعمال الجواده (الأجواد) وأستعين بالعلماء وأهل الدين في تسيير الحكم. وقد أثبت طول المعركة بانني كنت على صواب... كما انني ابعدت بطريقة مطلقة ودون أي استثناء الممثلين السابقين للحكومة التركية، لانهم كانوا دنيئين، وكان بودي أن يقارن الناس بسرعة بين الذين يتملكهم العجب، وتغريهم زينة الحياة الدنيا. وبيني أنا الذي لم يكن لي الا هدف واحد وهو انتصار المسلمين. وأدركت بانني لن أوفق الى منع القادة الذين عينتهم من أن يقترفوا اختلاساً أو أستطيع معاقبتهم - في حال ما اذا اقترفوا شيئاً من ذلك - الا اذا وفرت لهم مرتباً يكفيهم مؤونة العيش. ولذا خصصت للخليفة (١١٠) دورو، شهرياً، وصاعاً من القمح يومياً حتى يتمكنوا من النفقة على ضيوفهم الكثيرين والذين يستقبلونهم بحكم مركزهم ومسؤوليتهم. وخصصت للآغا (عشر) جميع ما يتقاضاه من ضرائب وذلك نقداً أو عيناً. وكان القائد يعامل أقل من الآغا بحكم مستوى دائرته ومسؤوليته بالنسبة للآغا. وهكذا فان كل واحد كان يتقاضى ما يناسب مهمته. ولحماية الرعية مما قد يلحقهم من مظالم من طرف رؤسائهم. فقد اقسم (حلف) الخلفاء والآغوات على صحيح البخاري بأن لا يعدلوا عن الحق، وأن يكونوا صادقين في خدمة

مواطنيهم. وكنت اسهر بنفسي على جميع اعمالهم»[1]

ولم تمض اكثر من سنوات قليلة (في سنة ١٨٣٧) حتى أصبحت الجزائر عبارة عن دولة اتحادية (فيدرالية) تضم ثماني مقاطعات، على رأس كل مقاطعة خليفة مهمته الرئيسية العمل على احترام الاجهزة الاجتماعية التقليدية، وتحقيق الوحدة الضرورية لمواصلة الحرب. فكان على رأس (تلمسان) السيد (محمد البوحميدي الولهاصي) وبها (١٣) ألف مقاتل. وعلى رأس (معسكر) صهر الامير السيد الحاج (مصطفى بن أحمد التهامى) وبها (١٥) الف مقاتل. ولما امتدت طاعته إلى ما وراء (وادي شلف) جعل (مليانة) مقاطعة ثالثة، وولى عليها السيد (محيى الدين بن علال القليعي) ولما مات ولي عليها السيد (محمد بن علال) من اقاربه. وكان معه (١٠ , ٤٤٠) مقاتل. ولكل من هذه المقاطعات الثلاث مرسى تخصها فلتلمسان مرفأ (رشقون-أو رشكون) ومرفأ معسكر هو (آرزو). اما (شرشال) فقد بقي مرفأ لمقاطعة (مليانة) كما ولى أحد القادة العسكرين البارزين (وهو السيد محمد البركاني) على المدية، والسيد (ابن الطيب بن سالم) حاكمًا على (برج حمزة) ومعه (٤٣٥٠) جندي، وبإمكانه- بالاضافة الى ذلك ن يعتمد على المتطوعين من بلاد القبائل. وولى السيد (طبال بن عبد السلام) خليفة على مجانة). أما الجنوب الصحراوي فكانت به مقاطعتان، إحداهما مقاطعة (الزيبان) وعلى رأسها السيد (بن عزوز) ومقاطعة الصحراء الغربية، وولى عليها السيد (قدور بن عبد الباقي) الذي كان تحت قيادته ما يزيد عن (٨) آلاف مجاهد. وفي المجموع كانت هناك (٨) مقاطعات تضم ما يزيد على (٥٩) الف مقاتل، منهم قرابة (٦) آلاف جندي منظم. وهذا

(١) الامير عبد القادر- سلسلة الفن والثقافة- الجزائر- ١٩٧٤ ص ٥٣- ٥٦.

ما يوضح لنا الدور العسكري الذي اضطلعت به الحكومة المنظمة لمقاومة الغزاة.

آ- تنظيم الجيش:

أخذ الامير عبد القادر - منذ لحظة مبايعته بالامارة - ببذل جهود جبارة لاعادة تنظيم الجيش- ووضعه في مصاف الجيوش المعاصرة له في الدول العظمى. فقسمه الى ثلاث فرق - أو اسلحة - وهي (المشاة والخيالة والمدفعية) ووحد زيه - لباسه - وأصدر القوانين العسكرية التي يجب على الجندي التمسك بها، مع تحديد العقوبات الصارمة والرادعة على المخالفات والاخطاء المرتكبة. ووضع سلم التسلسل العسكري كالتالي:

جاويش (رقيب) لقيادة ١٢ جندياً.
رئيس الصف لقيادة ٢٠ جندياً.
السياف لقيادة ١٠٠ جندي.
الآغا لقيادة ١٠٠٠ جندي.

ويعاون الآغا والسياف في عمله (كاتب) مهمته تنظيم المحاسبة والرسائل والتقارير، ويشرف هذا الكاتب على أعمال توزيع الطعام والرواتب الشهرية على الجند. ولكي يتميز الرئيس عن المرؤوس، منح الضباط بحسب رتبهم علامات فارقة من الذهب والفضة والجوخ الأحمر. ونقش على هذه العلامات آيات وعبارات تحمل جميعها طابع النظام والطاعة والجهاد. وتقرر منح الاوسمة لمستحقيها من شجعان الجنود: «فالجندي الذي ينقض على صفوف العدو فيغلب خصمه» ويجرده من سلاحه، أو يدعو الجنود للصمود عندما يكونون «إلى

وشك المزيمة، ويمنع بمثاله وحضور عقله وقوع الفشل أو الهزيمة، سيعلق له السلطان شخصياً الوسام أمام الجيش كله، وتعلن بطولته بدق الطبول» ويختلف هذا الوسام في مظهره بحسب جدارة مستحقه، فهو يتكون من يد فضية، أو فضية مموهة بالذهب ممتدة الأصابع. وعدد الاصابع الممتدة يشير الى عدد مواقف البطولة التي وقفها الجندي. وكل اصبع ممتد يجعل البطل مستحقاً لراتب اضافي يبلغ شلناً واحداً شهرياً. وفي وسط الوسام كتبت عبارة(ناصر الدين). وكان الوسام يلصق لا على الصدر ولكن على أحد جانبي رأس البرنس. وكان الوسام يمنح ايضاً للمدنيين الذين قاموا بخدمات ادارية عظيمة. كانت بدلة الجندي تتكون من سروال أزرق داكن مع حمرة ومن معطف بني له غطاء للرأس وطاقية وشاش صغيرين. وكان راتبه يبلغ تسعة فرنكات شهرياً. وعلى الكم الايمن لكل قائد خيطت العبارة التالية: «**الصبر والمثابرة مفتاحا النصر**» وعلى الكم الايسر: «**لا اله الا الله محمد رسول الله**». وعلى الكتف الايمن للآغا ـ وبدلاً عن الشارة العسكرية لدى الاوروبيين ـ كتبت العبارة التالية: «**لا شيء يفيد كالورع والشجاعة**» وعلى الكتف الأيسر: «**لا شيء يضر كالجدل والعصيان**». وكان جميع ضباط الجيش يحملون عبارات مكتوبة على بدلاتهم مشابهة لهذه في مضمونها. فالصبائحية ـ او الفرسان النظاميون ـ يلبسون بدلات بنية فقط، وكان قادتهم يحملون عبادة: «**ثق في الله ورسوله ـ جاهد وانتصر**». وكان المدفعيون يحملون عبارة: «**وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى**».

... لم يتجاوز عدد افراد الجيش الاسلامي في عهد الامير عبد القادر (١٦) الف مقاتل، في صفوف الاسلحة الثلاثة، وكانت اعباء الجهاد

اكبر من حجم هذا الجيش النظامي. ولهذا فقد اعتمد الامير عبد القادر على (مجاهدي القبائل) الذين بلغ عددهم في بعض الاحيان (١٥٠) ألف مجاهد.

وقسمت الوحدات الاساسية في الجيش النظامي إلى (كتائب) تضم الكتيبة منها (مائة جندي) أما الوحدة الاساسية في الفرسان فكانت السرية، وهي تضم (٥٠) رجلاً. وبقي المدفع هو وحدة الرمي، ويبلغ عدد سدنة المدفع (١٢) جندياً.

عندما بدأ (الامير عبد القادر) في تكوين جيشه النظامي، وضع مجموعة من الاوامر التنظيمية العسكرية، تتضمن ادق التفاصيل المتعلقة بالانضباط والرواتب وملابس الجند. وكانت هذه الاوامر التنظيمية تقرأ مرتين في الشهر على مختلف الوحدات، وكانت تتخللها الوصايا والوعود للسلوك الطيب. ويكفي هنا التعرض لتوجيه يعتبر نموذجاً لتلك الوصايا وفيه ما يلي: «**من الضروري أن يكون القائد شخصياً شجاعاً ومقداماً، وأن يكون من أسرة محترمة، ليس محلاً للانتقاد الأخلاقي، محافظاً على دينه، صبوراً، حليمًا، حذراً، حاضر البديهة، ذكياً في لحظة العسر والخطر، ذلك ان القائد بالنسبة لجنوده هو بمنزلة القلب من الجسد، فاذا كان القلب عليلاً فلا فائدة من الجسد**».

لقد تحدث (الامير عبد القادر) عن الصعوبات التي جابهته منذ البداية، وعن الطرائق التي اتبعها للتغلب على تلك الصعوبات بما يلي: «ان تجنيد جيش نظامي من شعب لم يعرف التجنيد الاجباري حتى ايام الحكم التركي، هو تجربة خطيرة تحتاج الى حنكة وحذر كبير، لا سيما مع ما عرف عن هذا الشعب من الاستعداد للثورة بمجرد طرح فكرة التجنيد الاجباري ولهذا كان من المحال الاعلان عن خطة

من هذا النوع صراحة، فتم توجيه الدعوة الودية بشكل اقتراح وتلميح، ووزعت على كل المدن والدوائر، وهي:

«على كل من يرغب في ان يلبس لباساً أنيقاً وأن يصبح ابناً للسلطان، عليه أن يأتي ويلتزم بذلك، فانه يحصل على راتب محترم، وسيعفى من كل شيء» وقد استجاب بعض الشبان لما تضمنه النداء. وقدموا أنفسهم للتجنيد. وبذلك أمكن البدء بتشكيل الجيش النظامي بدون أن يشعر أحد بذلك تقريباً. وقد وصف الامير عبد القادر تنظيمه العسكري بالتالي: «أصبح لدي جيشاً نظامياً مكوناً من (٨) آلاف جندي وألفي فارس- أو صبائحي- و(٢٤٠) مدفعاً. وكان عندي (٢٠) مدفع ميدان بالاضافة الى مخزون كبير من المدافع الحديدية والنحاسية مما خلفه الاتراك، والتي كان عدد كبير منها غير صالح للاستعمال عملياً. والى جانب ذلك، كانت هناك القوات التي ترسلها الي القبائل الخاضعة لي وقوات خلفائي، والتي كانت تشكل قوة احتياطية ضخمة، رغم انها مؤقتة، ما دمت لا أستطيع ان احتفظ بالجنود لمدة طويلة بعيداً عن قبائلهم - ومن هنا كان لا بد من زيادة الاعتماد على الجيش النظامي - فكان باستطاعتي إمداد كل خليفة من حلفائي بألف جندي و(٢٥٠) فارساً، ومدفعين أو ثلاثة. وكان جنودي المشاة يجندون من المتطوعين فقط، ولكنهم كانوا أكفاء اذا أخذنا في الاعتبار وسائلي المالية والاسلحة التي كانت تحت يدي... وكان مدربو جيشي النظامي من المشاة هم جنود (النظام) من تونس وطرابلس، بالاضافة الى الفارين من الجيش الافرنسي. وقد ازداد عدد هؤلاء حتى تم تشكيل كتيبة خاصة منهم، وقد حاربوا ضد مواطنيهم بكل شجاعة وإقدام، ولقد وزعتهم على خلفائي. أما النظاميون من فرساني، فقد

رفضوا الخضوع لتدريب المدربين. انهم كانوا في اسلوبهم الحربي تقودهم شهامة مستقلة تمنعهم من الاعتراف بسيد يخضعون له. وكانوا يعرفون بانهم لا يساوون شيئاً عند قتال الصدمة، غير انهم كانوا يعتقدون ان ما من احد ينافسهم في الاشتباك الفردي وفي الكمين وفي المباغتة وفي المناوشات الخفيفة. ولم يكن الهروب في نظرهم يحط من قدرهم حتى أمام قوة أصغر منهم، لأن هروبهم لم يكن في الغالب سوى خدعة. وكان المبدأ الذي علمتهم اياه هو ان يلحقوا الاضرار بالعدو قدر استطاعتهم بدون أن يتعرضوا هم لأي ضرر».

ب- التسلح والصناعة الحربية :

أمكن للامير عبد القادر تسليح جند جيشه النظامي كلهم بالبواريد الافرنسية او الانكليزية. وحصل على هذه البواريد اما عن طريق الغنائم التي اكتسبها نتيجة معاركه الظافرة، أو من الجنود الافرنسيين الفارين، أو بالشراء من المغرب الاقصى (مراكش). وكان على كل عربي يمتلك بارودة افرنسية ان يبيعها الى الدولة بمبلغ جنيهين انكليزيين، ثم ان هذا العربي يحصل لنفسه على بندقية محلية الصنع، أو بطرقه الخاصة من الاسواق، أو من قبائل الصحراء التي تأتي الى التل، فتغرق البلاد بأسلحة تحملها معها من تونس، ومن تقرت، ومن ميزاب، ومن اولاد سيدي الشيخ. وأدرك الامير عبد القادر ضرورة الاعتماد في تسلحه على القدرة الذاتية للبلاد، فأقام مصانعه التي كان يديرها اوروبيون، والتي اخذت تنتج بكفاءة واتقان ما يحتاجه الجيش من مصانعها في اهم المدن الخاضعة للامير.

ففي (تلمسان) اقيم مصنع لصهر المدافع، كان ينتج يوميا اثنا

عشر، وستة مدكات مدافع ـ تحت اشراف هارب اسباني قدم الى المغرب. وكان أحد الافرنسيين الاختصاصيين في علم المعادن (يدعى السيد دوكاس) قد أنشأ في مدينة مليانة مصنعاً للبنادق وآخر لإنتاج البارود، وكان الحديد يحضر من منجم بالقرب من مليانة. وكانت مناجم ملح البارود والكبريت والحديد والنحاس محل عمل متواصل. وقد تركزت صناعة البارود في تلمسان ومعسكر ومليانة والمدية وتاقدامت. وبالإضافة الى ذلك، فقد اشترى (الامير عبد القادر) كمية كبرى من البارود ـ من المغرب الاقصى ـ واشترى ايضاً أحجار الصوان نظراً لعدم توافره في المغرب الاوسط ـ الجزائر ـ وتم استيراد الكبريت من فرنسا، أما ملح البارود فكان متوافراً في كل مكان. وكانت المدن الافرنسية الساحلية تقدم للامير ما يحتاجه من الرصاص ـ خلال فترات السلم ـ بالإضافة الى الكميات الهائلة التي قدمها له المغرب الأقصى. وأمكن بعد ذلك فتح منجم للرصاص في جبل (الونشريس) غير ان تكاليف استخراج الرصاص هنا كانت باهظة جداً، ولهذا السبب، حرص الامير على الاحتفاظ بالذخائر في مخازن الدولة، وعدم التوزيع على الأعراب الا بكميات محدودة نظراً لأنهم كانوا يبذرون في استخدامه خلال احتفالاتهم ومهرجاناتهم. ولم يخرج عن هذه القاعدة الا عندما كان يتطلب الأمر إمداد الجند الذين يحاصرون الافرنسيين، أو في ميادين القتال، حيث كان يتم الإمداد بالذخائر في مواقع القتال ذاتها. وعندما اخذ الامير في بناء قاعدة (تاقدامت) ـ اعتباراً من سنة ١٨٣٦ م ـ عمل على تحويل السراديب الرومانية القديمة الى مخازن للذخيرة والكبريت وملح البارود والنحاس والرصاص والحديد. ولكل الآلات والأدوات التي اشتراها (مولود بن عراش) من فرنسا بمبلغ اربعة آلاف جنيه استرليني. وكان مصنع

البنادق في (تاقدامت) ينتج ثماني بندقيات يومياً. وهو عمل من انتاج صناع افرنسيين جاء بهم من باريس بأجور حرة. وهناك وثيقة عن صناعة الذخائر - في المصانع الحربية الجزائرية - خلال تلك الفترة، جاء فيها ما يلي:

«يعمل العرب قبل كل شيء على لف المقوى - الورق - حول قضيب معدني مجوف، ثم يدخلون الرصاصة في الانبوب، حتى اذا ما صنعوا عدداً منها جاؤوا بالبارود المحمول على جلد الخراف حيث يقوم عدد من الجنود بدهن الانابيب (التي تحولت الى خراطيش، أو ظروف) مع املائها بالبارود مستخدمين في ذلك مقياساً صغيرا من القصب، في حين يعمل الآخرون على إحكام اغلاق الخرطوشة ووضعها في علب تتسع الواحدة منها الى خمسة عشر خرطوشة - طلقة - ثم تغلف هذه بورق يكون عرضه مساوياً تقريباً لطول الطلقات ويحزم الجميع»[1]

ج- الحصون والتنظيم الدفاعي:

اقتنع الامير عبد القادر بنتيجة نجاح الافرنسيين في احتلال (معسكر وتلمسان) دونما عناء كبير، بأنه من الضروري إقامة مراكز للاستيطان تكون بعيدة عن قبضة الافرنسيين. وكان لا بد له في الوقت ذاته من اختيار مواقع هذه المراكز الاستيطانية - أو المدن - بحيث يمكن لها الإشراف على مناطق استيطان العرب لابقائها تحت هيمنته، وإشعار القبائل الصحراوية المضطربة بالسلطة، وحمايتها من هجمات الافرنسيين. وقد اختار خط التل في الجنوب لإقامة هذه

---

(1) LA RESISTANCE ARMEE ALGERIENNE. P. 160

المدن، فاقام مدينة الى جنوب كل مدينة كبرى سيطر عليها الافرنسيين. وعلى الرغم مما كان يعانيه (الامير عبد القادر) من ضعف الموارد، فقد انصرف بكليته لإقامة هذه التحصينات والمدن في المواقع الجيو - استراتيجية الحصينة، فكان منها (سيبدو) في الغرب، و(سعيدة) في الجنوب من تلمسان و(تاقدامت) الى الجنوب من معسكر، و(بوغار) الى الجنوب من مليانه، و(بلخورط) الواقعة جنوب - شرق مدينة الجزائر مقابلة المدية، واخيراً (بسكرة) الى الجنوب من قسنطينة. وكان الامير عبد القادر وهو يقيم هذه المدن مقتنعاً بانه عند استئناف الحرب سيكون مضطراً لاخلاء كل المدن الواقعة على الخط الاوسط للاطلس، وبذلك سيكون من المحال على الافرنسيين الوصول الى الصحراء قبل مضي مدة طويلة على الأقل، لا سيما وأن الذيل الاداري الثقيل للقوات الافرنسية سيعيق من تحركها السريع. وقد رغب في تدمير المدية ومليانة ومعسكر وتلمسان، حتى يحرم الافرنسيين من التوغل بسرعة نحو الصحراء غير أن هذا المخطط الذي يعتمد على ما هو معروف باسم (الأرض المحروقة) قد لقي مقاومة بحجة ان الافرنسيين يستطيعون بناء ما تهدم، كما أن عملية إعادة بناء هذه المدن عند الانتصار على الافرنسيين سيكلف مبالغ طائلة (فظيعة). وكان من رأي الامير أن هذه المدن التي يرغب في تدميرها هي (حجر المرتقى) الذي سيصعده الافرنسيون للوصول تدريجياً الى جوف الجزائر. ويعتبر بناء (تاقدامت) في طليعة منجزاته في هذا المجال، وقد كانت (تاقدامت) مدينة رومانية قديمة لم يبق منها الا الأنقاض التي اراد (الامير) الافادة منها لاقامة عاصمة لامارته. وكانت تقع على مسافة ستين ميلاً الى الجنوب الشرقي من وهران، ويبلغ محيطها العشرة اميال، وفيها معبدين كبيرين. وبقيت هذه المدينة خلال

عهـد الازدهـار الاسلامي مـركزاً للحكومة وفيها مدرسة ثانوية تخـرج منـها عـدد مـن العلمـاء والشعـراء. غـير ان الصراع بيـن حكـام القيـروان و (فاس) في نهاية القرن العاشر الميلادي تسبب في تدميرها نهائياً، فجاء الامير عبد القادر، وصمم على اعادة مجدها لها، مستفيداً من موقعها الجيو ـ استراتيجي الحصين، فوضع حجر الاساس لأول حجرة (غرفة) فيها ـ في شهر ايار (مايو) سنة ١٨٣٦، ووضع بنفسه خطة التحصينات التي يجب ان تحيط بها، ودفع جوائز الى كل القبائل القريبة منها حتى ترسل له العمال للإسهام في بناء الحصون. وأحضر سكان (معسكر) ومعهم معاولهم ومجارفهم وسلالهم للعمل فيها. كما ارسلت (المدية ومليانة) الاجبان والفواكه المتنوعة، وقد كانت هذه المواد التموينية بالإضافة الى الخبز الأبيض الجيد، والى وجبات اللحم والاجور، من العوامل التي اسهمت بانجاز العمل، فسرعان ما شيدت المنازل وظهرت الشوارع، وتقاطر عليها المواطنون من مختلف الاجناس للاستقرار فيها واستيطانها، فكان هناك العرب والاندلسيون والكراغلة (أب تركي وأم عربية جزائرية) الذين قدموا مع عائلاتهم لسكناها بالإضافة الى بقية المواطنين القادمين من (معسكر ومازغران ـ مازغنان ـ ومستغانم). وقد تحدث الامير عن هذا الانجاز بقوله: «كانت ـ تاقدامت ـ ستصبح مدينة كبيرة، وهمزة وصل للتجارة بين التل والصحراء. وقد سر العرب بموقعها، وجاؤوا اليها في غبطة لأنها تمنحهم فرصاً كبيرة للربح، وبالاضافة الى ذلك، كانت تاقدامت شوكة في عين القبائل الصحراوية المستقلة، فهم لا يستطيعون الهروب مني. وقد سيطرت عليهم بمجرد التحكم في حاجاتهم المادية. فما دامت الصحراء لا تنتج الحبوب فهم مضطرون أن يأتوا إلي للتموين، لقد بنيت ـ تاقدامت ـ

فوق رؤوسهم. وعندما شعروا بذلك سارعوا الى عرض طاعتهم. والواقع أنه منذ هذا الوقت كان باستطاعتي دائمًا أن أفاجئهم بفرساني غير النظاميين (القوميين ـ أو القوم). وإذا لم أتمكن من حمل خيامهم معي فقد كنت على الأقل أسوق مواشيهم. وكانت العقوبات القاسية التي طبقتها على بعض القبائل النائية قد جعلت البقية تدرك بسرعة أنه لا أمل في الهروب مني. وهكذا انتهى الأمر بالجميع الى الخضوع لسلطتي، ودفع العشور والزكاة بانتظام. بل لقد كان من عادتي أن أرسل من يحصي مواشيهم دون أن ينبسوا بكلمة واحدة». وكان الأمير عبد القادر يشرف على كل الاعمال برقابة شخصية مستمرة. وقد وصف السيد (دي فرانس) الذي كان أحد المساجين عندما كانت تلك الأعمال في أوج نشاطها، ما رآه فقال: «بعد زيارة الأنقاض جئنا الى استحكام كان عبد القادر يقيمه على بعد حوالي مائتي خطوة من قلعة ـ تاقدامت ـ وقد اقتربنا من السلطان الذي كان متكئاً، بصحبة كاتبه ـ ابن عبود ومولود بن عراش ـ على مرتفع من تراب القى به العمال حديثاً من خندق كانوا يحفرونه باجتهاد. كان لباسه من البساطة بحيث لا يميزه المرء عن العمال الا بصعوبة. وكان يضع على رأسه مظلة كبيرة مصنوعة من سعف النخيل، وكان محيط حافة المظلة التي كانت مخيطة بخيوط من الصوف ومزينة بالعذبات، يبلغ ثلاثة أقدام. أما المظلة نفسها فقد كان علوها قدماً ونصفاً على الأقل. وكانت تبدو كأنها نفق منته بهامة. وعندما مررت بالسلطان حياني بجلال فريد، وبابتسامة عذبة، وأشار علي بيده للجلوس. وقد بادءته بالحديث قائلاً: اذا حكمنا من الانقاض، فان المدينة لا شك كانت فيها مضى واسعة ومزدهرة. فأجابني: نعم لقد كانت جميلة جداً وعظيمة جداً فسألت: هل تعتقد أنني سأكتشف أي حجر عليه كتابات قديمة؟

فاجابني: «انك سوف لا تجد شيئاً، لأن هذه المدينة لم تكن ذات يوم مسيحية. ولقد كانت احدى اوائل المدن التي بناها العرب. وكان اجدادي السلاطين الذين كان مركزهم ـ تاقدامت ـ يحكمون من تونس حتى المغرب الأقصى» ثم سألني السلطان رأيي في بناء التحصينات. فأجبته بأنها تظهر لي جيدة في موقعها وفي هندستها. وكان من الواضح أنه استفاد في بناء تحصيناته من نظرة نقدية الى تحصيناتنا الخشبية. ويبدو أنه قد سر كثيراً من جوابي. ثم استأنف حديثه معي قائلاً بحيوية: . ـ « **انني ما زلت آمل أن أعيد الى تاقدامت ماضيها المجيد. وانني سوف أجمع القبائل فيها حيث سنكون في مأمن من هجمات الافرنسيين. وعندما تكون كل قواتي قد اجتمعت فانني سوف أنزل من هذه الصخرة الشماء، كما ينزل النسر من عشه، لكي أطهر مدن الجزائر وعنابة ووهران من المسيحيين. ولو أنكم راضون حقيقة بهذه المدن لتركتكم تعانون فيها، لأن البحر ليس من شأني، وليس لي سفن. ولكنكم تريدون أيضاً الاستيلاء على سهولنا ومدننا الداخلية وجبالنا. بل انكم طمعتم حتى في خيلنا وإبلنا وخيامنا ونسائنا. لقد تركتم بلادكم وأتيتم لتأخذوا الأرض التي وضع فيها محمد ﷺ شعبه. ولكن سلطانكم ليس فارساً ولا مرابطاً، وستتعثر خيولكم وتسقط عن جبالنا لأنها ليست ثابتة الأقدام كخيولنا، وسيموت جندكم مرضاً، وحتى اولئك الذين سينجون من المرض سيسقطون برصاصنا».**

اراد الامير عبد القادر جعل (تاقدامت) قاعدة صلبة للدولة المحاربة، لا مجرد قلعة حربية فقط، فوضع في اعتباره ضرورة إقامة مراكز علمية فيها، وإنشاء مدرسة ثانوية، وإقامة مكتبة عامة شرع في

إحضار الكتب اليها من كل أنحاء المشرق العربي ـ الاسلامي (وقد كلفت المكتبة كثيراً من الوقت والجهد) على حد تعبير الأمير، واقام في (تاقدامت) داراً لسك النقود الفضية والنحاسية (**التي حمل أحد وجهيها عبارة ـ باسم الله ـ نعم المولى ونعم النصير ـ وحمل وجهها الآخر عبارة: ضرب في تاقدامت بأمر السلطان عبد القادر**). كما اقيمت في (تاقدامت) مصانع النسيج التي اخذت في انتاج الأقمشة ذات النوعية الممتازة. علاوة على مصانع الاسلحة والذخائر. ونظمت حماية المدينة، فكان هناك اثني عشر مدفعاً وستة مدافع هاون منتشرة بين التحصينات القوية.

د ـ التنظيم الاداري والتموين:

كان على (الامير عبد القادر) استثمار كافة الموارد لما يطلق عليه اسم (اقتصاد الحرب). فقد كان عليه، كما قال هو ذاته: «**توفير المصاريف لاداري. كان علي أن أصنع كل شيء من العدم، رغم انني قيدت نفسي بالانفاق على ما هو ضروري فقط. فكان لابد من فرض الضرائب الثقيلة**» ومن اجل ذلك، أمر خلفائه في الاقاليم بمراقبة الموارد مراقبة شخصية، فكانوا يقومون بجولة مرتين في السنة، مرة في الربيع لجمع الزكاة، واخرى أثناء الحصاد لجمع العشور. وكان عليهم خلال جولاتهم مراقبة إدارة الآغوات وتنظيمها، ورفع التقارير الى الأمير عن أي شكوى ضدهم، كما كان عليهم الإشراف على الاعمال الاخرى التي تجري في املاك الدولة. وكان يتبع ـ الخلفاء ـ في جولاتهم، عادة، فرقة نظامية وقوة من الفرسان غير النظاميين ـ الاحتياطيين ـ المعروفين باسم (الصبائحية). ذلك انه كان من الصعب حمل الأعراب على دفع الضرائب طوعاً، لا سيما عندما كان

يتعرض الامير للهزيمة في مجابهته لقوات الافرنسيين، فكان لسان حالهم كما وصفهم عبد القادر يردد في السر: «ان السلطان مشغول بالمسيحيين، فهو لا يستطيع فرض الضرائب علينا، دعنا لا ندفع اليه، بل دعنا نرى ما سيحدث» وما كان يحدث هو انهم كانوا في النهاية يدفعون كل شيء، مع المتأخرات، ولكنهم لم يتعظوا أبداً فالعرب - على حد تعبير الامير « لا ينظرون دائمًا الا الى اللحظة التي هم فيها».

وكان الامير عبد القادر يحاول وهو يطالب القبائل بدفع ما هو ضروري لدعم الدولة، أن يتوافق ذلك في الوقت ذاته مع مصالحهم الخاصة، بحيث يتم الجمع بين المصلحة العامة للدولة والمصالح الخاصة للمواطنين. ومن أجل ذلك طلب الى خلفائه ان يقبلوا، بدل الضرائب والغرامات، المواد الاستهلاكية والبغال والابل، وبالأخص الخيول. وكان يستفيد من ذلك كله، فيقدم الخيول لفرسانه، ويستخدم البغال والإبل في عمليات النقل والإمداد. أما المواد الاستهلاكية فكانت تقدم لتموين الجنود مع حفظ الفائض منها في مستودعات - مخازن - للطوارىء. ولقد تزايدت مصادر دخل (الامير) عن طريق الغزوات التي كان يقوم بها كلما لجأت القبائل الى السلاح لحل خلافاتها فيما بينها. فجعل من دولته المرجع الوحيد للاحتكام من أجل حل مثل هذه الخلافات، وامكن له توسيع هذه القاعدة وتعميمها بحيث باتت لا تطلق رصاصة واحدة الا باذن الامير وموافقته. وكان يعمل على توزيع الخيول والبغال والابل التي تزيد عن حاجته بين القبائل للعناية بها ورعايتها لقاء اجور كافية. وقد برهنت هذه الطريقة على اهميتها وفاعليتها لمجابهة الظروف الصعبة الناجمة عن الحرب،حيث كانت خسائر الخيول في الفرقة النظامية كبيرة جداً،

حتى انه ما من فارس لم يقتل تحته سبعة أو ثمانية من الخيول، وفي بعض الاحيان اثني عشر حتى ستة عشر فرساً. ويذكر الامير عبد القادر هذا الموضوع بقوله: «**وعلى سبيل المثال: فهناك ابن يحيى، ذلك الجندي الهمام الذي فضل موتاً محققاً على أن يعيش بعد هزيمتي، خلال معركتي الاخيرة مع المغاربة. (في كانون الاول ـ ديسمبر ـ ١٨٤٧) فقد ثمانية عشر حصاناً قتلت كلها تحته. وقد بلغت المنافسة درجة كبيرة في هذا المجال حتى ان أي فارس يقضي سنة دون ان يكون له حصان جرح أو قتل تحته، كان ينظر اليه باحتقار**». وكان (الامير) لا يكتفي بتوزيع الخيول على الفرق النظامية، بل انه كان يقدم الخيول ايضاً الى الفرسان غير النظاميين (القوميين ـ او القوم) ممن تقتل خيولهم في المعركة حتى بلغ عدد الخيول التي قدمها لهؤلاء اكثر من (٦) آلاف حصان. ولم يكن باستطاعته دائما تأمين هذه الخيول، فكان يعمل في مثل هذه الحالات على تعويض الفارس الذي يقتل فرسه بجملين أو ثلاثين رأساً من الغنم يقوم الفارس ببيعها وشراء حصان بثمنها لركوبه. وقد تحدث (الامير عبد القادر) عن بعض مصاعبه في مجال التنظيم الاداري والمالي، فقال: «لكي اعطي فكرة عن استهلاك الخيول، أقول انني خلال سنة واحدة، أعطيت (٥٠٠) حصان لغرابة وهران، وحوالي نفس العدد (لحاجوط) في سهول مدينة الجزائر. وفي الوقت ذاته هناك كثيرون لم احاول ابداً تعويضهم، اما لأن أصحابهم اغنياء، واما لانني لم أعد أملك الوسائل لتعويضهم. وكانت الأغنام والأبقار التي تدفع بعنوان الزكاة تعطى للقبائل تحت إشراف القادة. وكان واجب هؤلاء المسؤولين أن يحسبوها، وأن يعينوا لها رعاة لإطعامها والعناية بها. وكانت هذه الحيوانات، التي توجد في مقر حكم كل خليفة، تستخدم لسد تكاليف الضيوف،

ولمعونة الفقراء ومساعدة الطلبة ولتموين جيشي الذي كان يأكل اللحم مرتين في الاسبوع. وبهذه الطريقة استطعت أن أقيم نظاماً كاملاً لادارة الضرائب في كل ولاية (خلافة). ولكن عندما استؤنفت الحرب، لم استطع منع الغش، وقد اغتنم العرب في كل مكان فرصة انشغالي، ولم يستطع سوى خليفتين أن يحافظا على النظام الذي أقمته إلى آخر لحظة، وهما: البوحميدي وابن علال، وقد كان الناس يخشون كلاً منهما لصرامته. ولم تكن الاحتياطات التي ذكرتها تكفي لتموين جيشي في كل المجالات التي دعاه واجب الحرب للعمل فيها. لذلك أمرت تفادياً لوضع عبء جديد على الاهالي وهو اقامة (مطامير) أو مخازن للحبوب تحت الارض في كل ولاية (خلافة) وكانت هذه المخازن توضع تحت حماية قائد كل قبيلة وبحيث لا يمكن للعدو العثور عليها، وكانت هذه المطامير - او المستودعات مخصصة للحبوب التي تدفع كعشور، أو من أراضي الدولة، والتي كانت تحرث وتزرع مقابل أجور يتم دفعها للمزارعين، وأحياناً بالقوة. وبهذه الطريقة، برهنت للعرب، الذين من طبيعتهم الشك انني لم آخذ شيئاً من الضرائب لمصلحتي الشخصية. لقد جعلتهم يدفعون للصالح العام فأجابوني. والواقع ان هذه المخازن هي التي أخرت سقوطي، فعندما جردت من مخازن تمويني، أصبحت مضطراً لفرض مطالب جديدة على القبائل. ولما شعرت هذه القبائل بالضغط الشديد من الجهتين، العدو والصديق، ارتخى حماسها للجهاد. اما بالنسبة لي، فما حاجتي الى اللجوء للخزينة العامة لدفع مصاريفي الخاصة، فالى اللحظة التي وضع فيها الافرنسيون ايديهم على املاكي القليلة، لم أمس قط أي شيء مما أعطاني العرب للمصاريف العامة. وعندئذ لم آخذ الا ما كان ضرورياً جداً. فملابسي كانت تصنعها نساء بيتي،

ودخلي القليل كان يكفي لحاجات أسرتي. بل حتى الفائض القليل الذي ترك لي كنت أصرفه في مساعدة الفقراء والمسافرين، وبالأخص المحتاجين من أصحابي في السلاح الذين كانوا قد جرحوا أثناء الجهاد. وبذلك كان في استطاعتي باستمرار أن أنادي العرب للتضحيات الكبيرة، لانني أريتهم ان الزكاة والعشور والغرامات والمساعدات، وكل مواردي في الحقيقة، كانت مخصصة لخدمة الصالح العام فقط. وعندما اضطررت لدعوة العرب من أجل تقديم قرض كبير، كانت استجابتهم بطيئة فبعت فوراً كل مجوهرات عائلتي بالمزاد العلني في أسواق معسكر، واعلنت على الملأ أن ثمنها سيرسل الى الخزانة العامة، فجاء القرض حينئذ بسرعة، حتى ظهرت مشكلة من يدفع أولاً» .لقد كان على (الأمير عبد القادر) الاهتمام بكل المتطلبات، صغيرها وكبيرها، ومن ذلك انه عين لدى حكومة كل خليفة من خلفائه خياطين وصانعي الدروع والسروج لكي يصنعوا ملابس الجنود ويصلحوا أسلحتهم ويحافظوا على عدة خيولهم. كما وزع مثل هؤلاء على القبائل حتى يكون رجالها على استعداد دائم للحرب، وحتى يمكن لهم الاستجابة لنداء القتال فوراً.

ولم يكن باستطاعة الامير عبد القادر انجاز مخططاته وتحقيق اهدافه لو لم يسهر بنفسه على تنفيذها بهمة لا تعرف الكلل، وكان دائم الحركة يفتش جنوده، ويزور مخازنه الحربية، ويتفقد مدارسه، ويدير القضاء. تدفعه الى ذلك غيرة متقدة لتحقيق مهمته العظيمة على اكمل وجه ولهذا فهو لم يضع ساعة واحدة من ليل أو نهار بدون أن يصرفها في التخطيط والترتيب وتنفيذ مشاريع جديدة للتقدم والاصلاح.

٣ ـ بناء الدولة الاسلامية

كان الهدف الأسمى والأشمل لعبد القادر هو جعل عرب الجزائر شعباً واحداً، ودعوتهم للمحافظة التامة على دينهم، وبعث روح الوطنية فيهم، وايقاظ كل قدراتهم الكامنة، لبناء مجتمع الحرب والسلم، ولدعم اقتصاد الحرب بزيادة الانتاج في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة. ولم يكن الطريق ممهداً، واصطدم بعقبات كثيرة، غير أنه تابع بذل جهوده بدون كلل أو ملل لايقاظ الشعور الديني للعرب وتوحيدهم وتوجيههم نحو الهدف الاسمى (الجهاد في سبيل الله ضد الغزاة ـ أعداء الدين والوطن). ومن اجل ذلك فقد عمل منذ البداية على تنظيم التعليم العام ونشره بين القبائل. وقد تحدث عن ذلك بقوله: «**كان من واجبي كحاكم مسلم أن ادعم علوم الدين وأن أبعثها. لذلك فتحت المدارس في المدن وبين القبائل. فكان الأطفال في هذه المدارس يتعلمون بدون مقابل العبادات والصلاة وحفظ تعاليم القرآن وفروضه ومعرفة القراءة والكتابة والحساب بصورة جيدة**» **وكان الذين يريدون مواصلة تعليمهم بعد ذلك يرسلون الى الزوايا والمساجد لتعلم التاريخ وعلوم الدين. وخصصت للطلبة رواتب على حسب معارفهم ودرجاتهم**. وظهر لي ان العلم هام جداً،

فعملت على تشجيعه، حتى انني عفوت اكثر من مرة عن أناس مجرمين محكوم عليهم بالموت لمجرد أنهم طلبة ومعروف أن المرء في بلادنا يحتاج الى وقت طويل حتى يصل الى مرتبة عالية من التحصيل في العلم. لذلك لم تكن لدي الشجاعة لاضاعة ثمار احتاجت الى سنوات من الجهد في يوم واحد. ان الساكن في كوخ قد يقطع نخلة لا تريحه، ولكن كم سنة يجب عليه أن ينتظر قبل أن يصبح بامكانه تذوق ثمار نخلة أخرى يغرسها. ولكي أساعد الطلبة على دراستهم بذلت أقصى جهد ممكن للمحافظةعلى الكتب والمخطوطات من الضياع. وكان هناك اكثر من سبب يدفعني الى بذل هذه الجهود، ذلـك انه بالنسبة الينا يلزم المرء عدة شهور لكتابة نسخة واحدة. ومن أجل ذلك أعطيت أوامري المشددة في جميع المدن والقبائل لبذل اقصى عناية ممكنة من اجل المحافظة على المخطوطات. واشتملت اوامري على فرض عقوبات شديدة لمعاقبة كل من يتلف أو يفسد مخطوطا. ولما كان جنودي يعرفون مدى اهتمامي بهذا الموضوع فقد كانوا يحرصون على احضار كل ما تقع عليه أيديهم من مخطوطات اثناء الغزوات. وكانوا يقومون بذلك بعناية فائقة. ولكي اشجع غيرتهم وحماستهم في هذا المجال كنت دائمًا اعطيهم جوائز كبيرة على ذلك. وشيئاً فشيئاً جمعت مجموعة ضخمة من هذه المخطوطات ووضعتها في اماكن أمينة في الزوايا والمساجد وأوكلتها الى الطلبة الذين كانوا موضع ثقتي. وبنفس الهمة التي وضعت بها نظام التعليم العام أسست نظام القضاء. فقد خصصت للقضاة رواتب شهرية، بالإضافة الى علاوات يتقاضونها لقاء قيامهم ببعض الواجبات الأخرى، كان النظام الذي اريده يقوم على ان ممثلي القضاء يجب أن يظهروا في كل مكان، بل ان يتبعوا جيشي في مسيرته. ولم اكن اسمح بأي تنفيذ

للإعدام الا بعد حكم مطابق لشريعة الله التي لم اكن سوى منفذ لها. ولذلك كان يرافق جيشي أينما ذهب، قاض ومساعدين، أحدهما رئيس الشرطة (الذي كان ينفذ الأحكام). ولم يكن الناس ينظرون اليه باشمئزاز على فعله ذلك، ما دام ليس هو في الواقع المنفذ للقتل بل القانون. ولا شك أن كثيراً قد عانوا من نظامي هذا، ولكن لم يعان أحد بدون حكم شرعي. وجميعهم قد ارتكبوا نوعاً ما من الجرائم أو خانوا دينهم. ان شريعتنا صريحة، في ان كل من أعان العدو ببضائعه فقد أحل بضائعه، وكل من أعانه بسلاحه فقد أحل حياته.

ولقد أصبحت الطرق آمنة تماماً، بفضل يقظة خلفائي وأعواني وقادتي، وبفضل المسؤولية التي حملتها القبائل عن كل الجرائم والسرقات التي تقع في مناطقها. وكانت يقظة الشرطة قد جعلت الناس آمنين مطمئنين، وبعبارة أخرى، فرغم وجودي بين شعب يعيش تحت الخيام، وكان لذلك من الصعب أن يدار وأن يوجه لاتساع المساحة التي كان منتشراً فيها، فقد استطعت أن أصل الى عهد أصبحت فيه سرقة الخيول بالليل غير معروفة، وأصبحت المرأة تستطيع الخروج وحدها دون أن تخاف المهانة. وعندما يعلق الناس على هذه النتيجة الكبيرة ويطلبون السبب، كان العرب يجيبون: (ان مصائد السلطان منصوبة وليس هناك حاجة لنصب مصائدنا الخاصة). وفي الوقت ذاته أدت اصلاحاتي الى الارتفاع بالروح العامة. فالعهر قد حورب بشدة. ولو شاء الله لانتهيت باعادة العرب الى طريق القرآن الذي ابتعدوا عنه كثيراً. لقد منعت منعاً باتاً استعمال الذهب والفضة في ثياب الرجال، لانني كنت اكره التبذير والتحلل الذي يؤدي اليه، ولم اتسامح الا بتزيين الأسلحة والسروج. اليس من واجبنا ان نعز وأن نكبر ما ساهم كثيراً في

سلامتنا؟ أمـا النساء فان الحظر لم يشملهن. ان الجنس الضعيف يحتاج الى تعويض، لان الرجل في امكانه التمتع بجميع انواع اللذائذ التي يرغب فيها، الحرب والصيد والأشغال الفكرية والحكومة والدين والعلوم.

لقد كنت أول من ضرب المثل بلبس ثياب بسيطة بساطة ثياب اكثر خدمي تواضعاً. وما فعلت ذلك خوفاً من تمييز نفسي أمام ضربات قنابل العدو. ولكنني فعلته لانني كنت أرغب أن لا أفرض على العرب إلا ما أفرضه على نفسي، وأن أظهر لهم أنه من الأفضل أمام الله أن نشتري سلاحاً وذخيرة وخيلاً للحرب من ان تكون ثيابنا مزينة وغالية ولكن غير مفيدة.

أما الخمر والميسر فقد منعتهما تماما، كما منعت التدخين. وليس معنى ذلك أن ديننا يمنع التدخين ولكن جنودي كانوا فقراء، ولذلك كنت حريصاً على أن أبعدهم عن عادة معروفة بزيادة الفقير فقراً حتى أنها اوصلت بعض الناس الى ترك عائلاتهم في فقر مدقع، وحتى بيع ثيابهم من اجل اشباع نهمهم في التدخين. حقا لقد بقي بعض الناس يدخنـون، ولكن ذلك كان في مناسبات فقط وفي سرية ايضاً. وكانت هذه الخطوة كسباً كبيراً. أما المرابطون والطلبة وكل من له علاقة بالحكومة فقد أبطلوا عادة التدخين تماماً. وعلى اية حال فان هذا يظهر إلى أي مدى نجحت في كسب الطاعة».

أمكن للامير عبد القادر توحيد الوطن الجزائري، واقامة دولة (الحرب) واتبع في ذلك وسائل مختلفة، واساليب متنوعة. وقد تحدث هو عن ذلك بقوله: «لم يعد في الصحراء سوى اربعة مراكز لم تصلها بعد سلطتي، وهي ميزاب وورقلة ونقرت ووادي سوف. أما أولاد

(سيدي الشيخ)[1] فقد اعترفوا جميعاً بسلطتي. حقاً لقد منحتهم بعض الامتيازات، وسمحت لهم بدفع ضرائب منخفضة، ولكنهم كانوا قبيلة من المرابطين، ومن واجبي أن أعاملهم بدرجة خاصة من الإكرام. وأما أهل القصور - والذين يستوطنون مجموعة من القرى الصحراوية - فهم لا يدفعون الا القليل، ولا يهمني أن أكون متصلباً معهم، وهم ينظرون الى موقفي هذا منهم على أنه رفق بهم لفقرهم».

ولقد فرض الأمير سيطرته على اقليمي وهران وتيطري بالقوة - على نحو ما سيأتي شرحه - غير انه اتبع أساليب أخرى في فرض هذه السيطرة على القبائل الكبرى، المنتشرة في تلك القطعة الساحرة من جبال (جرجرة) والممتدة من مدينة الجزائر شرقاً حتى بجاية. وذلك نظراً لما تميزت به هذه القبائل من النزوع الشديد للاستقلال، والولع المتطرف بالحرية، مما مكنهم من الاستعصاء على كل المحاولات لاخضاعهم، وساعدهم على الاحتفاظ بشرائعهم وعاداتهم وتقاليدهم، وسط حكومات متقلبة قامت وسقطت من حولهم. وكان من الواضح أن هذا المربض للجنود سيعطي عبد القادر، اذا ما كسبه الى جانبه، عنصر دعم ثابت لا يتراجع وسيكون له عوناً للزحف على اعدائه اذا ما تطلب الأمر، ولهذا قرر عبد القادر، أن يحقق وحده باللين والاغراء ما عجز الآخرون عن تحقيقه بقوة السلاح، وهكذا ظهر فجأة في ايلول (سبتمبر) ١٨٣٩ في (برج حمزة) متبوعاً بخمسين فارساً فقط، وكان الى جانبه خليفته المخلص (ابن سالم). وقد سأله

---

(١) مجموعة من القبائل في الجنوب الغربي من الجزائر، وجزء من الجنوب الشرقي للمغرب، وقد قاموا بعدة ثورات ضد الافرنسيين منها ثورة (١٨٦٤) وثورة (١٨٨١) بقيادة الشيخ (بوعمامة). وسيتم التعرض لهذه الثوارت في البحث المقبل من هذه المجموعة.

بعضهم عما يريد عمله فأجابهم (اريد ان اكسب تأييد جرجرة).
وقطع الركب المرتفعات الاولى بسرعة. وكان منظر هذه الكوكبة الصغيرة من الفرسان، منحدرة الى اعماق الوديان والشعاب أو صاعدة مرتفعات تكاد تكون عمودية، قد أثار العجب والاستغراب بين الجبليين الذين كانوا ينظرون من أكواخهم الى هذا المنظر المثير. وانتشر الخبر بسرعة عن تقدم (الامير عبد القادر) فتداعى الناس من كل جانب لتحية ضيفهم الشهير. وزاد العدد الذي تجمع حول خيمته على الآلاف. وغص مدخل الخيمة بالشيوخ والمرابطين واشتد الزحام حول الخيمة، واخذ بعضهم في التسلل بخشونة لرفع اطراف الخيمة وإشباع فضوله بالتعرف على (الامير) غير ان المرافقين ردوهم عنه قائلين لهم: «عودوا الى الوراء، انكم ستدوسون سيدنا».
وعندما رأى عبد القادر خيبة الأمل وهي ترتسم على وجوههم، قال لمرافقيه: «دعوهم يقتربوا، دعوهم يقتربوا - انهم اشداء صلاب مثل جبالهم، اعذروهم فانتم لا تستطيعون تغيير طباعهم في يوم واحد».
وعندما طلب عبد القادر مقابلة زعماء الأهالي، كان الجواب: «اننا نطيع امناءنا ومرابطينا» وعندئذ تقدم الامناء للترحيب وتقديم الولاء.
وسألهم عبد القادر عمن يمثل الجميع، فاجابوه: «ليس عندنا زعيم واحد نمنحه كل الصلاحيات. ان امناءنا الذين اختيروا بالانتخاب الشعبي هم الذين يعبرون عن ارادتنا العامة». فكان حقاً جواب قوم يحرصون على حريتهم وهنا أمر عبد القادر بافساح المجال، وطلب الى الجمهور المتراص أن يجلس، فتكونت بذلك دائرة كبيرة ووقف هو في الوسط. والسبحة في يده. وبدأ حديثه اليهم حديثاً يمر بالعقل ليصل الى القلب، وطالبهم بالانضواء تحت لوائه لدعم قضية الحق التي يدافع عنها، قضية الله ورسوله. ومما قاله لهم: «انه تمكن من هزم

الكفار الذين جاءوا لاحتلال أرضهم، اكثر من مرة، وكان جهاده ضدهم مجيداً من أجل الاسلام. وان كل غرب الجزائر قد أطاع أوامره، واذا شاء فإنه من السهل عليه أن يخضع شرق البلاد بغربها، وأن يقلب بساط غربها على شرقها، تماماً كما يقلب البساط الذي يقف عليه» واستمر عبد القادر في مخاطبته لهم قائلاً: «واذا قلتم لي أن الشرق أقوى من الغرب، فان جوابي هو أن الله قد أيدني بنصره لوضوح الاهداف التي تقودني وتوجهني.. وتأكدوا أنني لو لم أقف في وجه الافرنسيين المعتدين، ولو لم أظهر لهم ضعفهم وعدم قدرتهم، لانقضوا عليكم انقضاض البحر الهائج. ولرأيتم عندئذ ما لم يخطر على قلب بشر لا في الماضي او في الحاضر. ان الافرنسيين قد تركوا بلادهم، ولم يأتوا الا لاحتلال أرضنا واسترقاق أهلها، غير أنني سأكون لهم الشوكة التي وضعها الله في أعينهم واذا ساعدتموني فسأرميهم في البحر. أما اذا لم تساعدوني فإنهم سيسترقونكم ويدوسون حرماتكم فاشكروا الله على انني أنا عدوهم الألد.

استيقظوا يا أهل جرجرة، وانتبهوا من غفلتكم. وثقوا أن ليس في قلبي سوى الرغبة في سعادة وصلاح ورفاهية جميع المسلمين. وأن كل ما أطلبه منكم اليوم هو الطاعة والوفاق والمحافظة التامة على شرائع ديننا المقدس حتى ننتصر على الكفار، ولا أطلب منكم لتعضيد جيشنا سوى ما فرضه الله العلي القدير. انني لا أرغب في تغيير تقاليدكم، ولا في إبطال قوانينكم وأعرافكم، ولكن القيام بالعمليات الحربية تتطلب مسؤولاً. انني أدعوكم الى الجهاد في سبيل الله، فاختاروا رئيساً عليكم. وانني اقترح عليكم اختيار (ابن سالم) فاذا ما اخترتموه فسيكون لكم الدليل والموجه في ساعة الخطر والعسرة، والله شاهد على ما أقول. أما اذا لم يلامس قولي هذا مكاناً في قلوبكم، فسيأتي يوم

تندمون فيه، ولات ساعة مندم. انني أحاول اقناعكم بالتي هي أحسن لا بالقوة. وانني أدعو الله أن يهديكم الى سواء السبيل».
وعندما انتهى عبد القادر من حديثه، انطلقت صيحة عامة تقول: «اعطنا ابن سالم! اعطنا ابن سالم. وخذ منا الزكاة، وخذ منا العشور، وقدنا ضد الكافرين. اننا أبناؤك وجندك وخدمك».

وبعد ان ولى (ابن سالم) خليفة للامير على (جرجرة) وسط الافراح والمهرجانات، تابع الامير عبد القادر مسيرته السلمية عبر قرى الأرض الطيبة. وكانت مسيرته مجموعة من الافراح والاعياد التي استمرت ثلاثين يوماً. إذ ما كان السكان يعرفون في كل مرة مكان توقفه، حتى كانوا يسرعون اليه ببساطتهم العفوية وحماستهم المثيرة وهم يحملون معهم (ضيفتهم) التي كانت عبارة عن قصاع كبيرة من الأرز المغطى بقطع اللحم. وكان كل واحد يضع قصعته أمام خيمة الامير، ويصر على أن يتناول الامير منها قائلاً له: (كل - انها ضيفتي) ولكي يتفادى عبد القادر جرح العواطف، فقد كان مضطراً أن يذوق من كل قصعة على حدة. وبذلك تعرف أهل (جرجرة) على أميرهم، وتعرف هو عليهم، وكانت هذه المعرفة هي طريق الحب المتبادل، والولاء المطلق الذي استمر حتى آخر ايام الأمير فوق أرض الجهاد.

٤ ـ في افق العمليات والتكتيك

كان لا بد للامير عبد القادر بعد ذلك من تحديد المبادىء العامة لاعماله القتالية والتي تتناسب مع الطبيعة الجيو استراتيجية للاقليم، وحجم القوى، والتي لخصتها المقولة التالية: «**ان العرب لا ينكرون قوة فرنسا وقدرتها، غير اننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب، ولكن محاربة هجوم وإقدام. وان خرجت كتائبكم وقواكم نتقهقر أمامها متوغلين في الصحاري بأهلنا وأثقالنا، ولا نترك مجالاً للقتال حتى ترجعوا، ثم نبقى على هذه الحال حتى تضعف شوكتكم وتلين قوتكم**» وكانت هذه المقوله التي خاطب نائب الأمير فيها القائد الافرنسي (دي ميشيل) ايجازاً لاسس (حرب الحركة). وقد سبقت الإشارة الى ما اتخذه الامير من اجراءات إدارية للتخفيف من حركة القوات، وعدم إرهاقها بالاعباء التموينية (إقامة المطامير) وتأمين الخيول ووسائط النقل. غير أن عبقرية الامير في مجال تطوير حرب الحركة أسفرت عما عرف باسم (الزمالة). وهي عبارة عن جزء من تنظيم (المدينة المتنقلةالضاربة في عرض الصحراء) وكانت هذه المدينة المتحركة تتكون من ثلاثة أقسام:

اولها: (الزمالة) فيها مقام الأمير وآل بيته وحاشيته.

ثانيها: (الدوائر) وفيها المدنيون من شعبه والنساء والاطفال والباعة والصناع.

ثالثها: (المحلة) وهي معسكر الجند المحارب ومضارب صنع السلاح، ومستودعات الذخائر والمؤن وبها مكان فسيح لاجتماع المجلس العام. واتخذ (الامير عبد القادر) فيها مسجداً ونظم مضارب الباعة وأهل السوق، تضرب بعيداً عن الزمالة والدائرة والمحلة. فكانت تستحضر اليها الذخائر وما يلزم الانسان من صنوف البضائع، وما تدعو الضرورة اليه لجميع الحرف. وبالجملة فقد كانت الزمالة ومتعلقاتها على أتم ما يكون من الانتظام والالتئام المدني، وكان لها منظر جميل ترى منازلها من بعيد كأنها مدينة حافلة ذات قصور مشيدة وأبنية جليلة.

وتعتبر (الزمالة) مركزاً حربياً، ومقراً مدنياً، بها مائتا ألف نفس، وكان الأمير يبث من هذه المدينة المتحركة عيونه (جواسيسه) ويرسل منها بعوثه، وفيها يستعد للحرب. ولم تزل تزداد قوة وتتسع حتى أصبحت ملجأ عظيمًا وحصناً منيعاً. وقد عين لحراستها وحماية حوزها أربع قبائل من العرب وفرقة من الجند النظامي. ولقد طارت شهرة هذه المدينة المتحركة (الزمالة) التي كانت تملأ النجود والأغوار وهي تتردد بين الحل والترحال، بين الإقامة والانتقال. وقد حرص الامير على جعل نظام التعسكر محترماً من الجميع، ومنظمًا تنظيمًا دقيقاً. وفي ذلك يقول: «عندما أضرب خيمتي يعرف كل أحد المكان الذي يشغله. لقد كان معي ثلاثمائة أو أربعمائة جندي نظامي، الى جانب الفرسان غير النظاميين من بني هاشم ـ الاغريسيين ـ الذين كانوا مخلصين لي اخلاصاً شديداً. ولم يكن من السهل الوصول الي.

ولم أفعل ذلك حرصاً على أمني الشخصي. ولكني شعرت بضرورة تأمين متطلبات الجهاد في سبيل الله. وقد وضعت فيه ثقتي لحماية الذراع الذي يحمل نواءه». وكانت الزمالة بحجمها الكبير، تحتاج لموارد مائية ضخمة، لا سيما في المناطق الصحراوية، فحيثما حلت، تجف الآبار ومياه الجداول. ولهذا أقام الامير قوة خاصة من الشرطة لمنع تلويث المياه أو تبذيرها من قطعان الماشية. أما المواد التموينية (الحبوب والقمح والشعير) فكانت تجلب الى الزمالة، أو تقوم قبائل الشمال بتقديمها عندما يطلب اليها ذلك.

«هل تعرفون أين تكمن قوة عبد القادر؟ إنها في عدم إمكان العثور عليه، إنها في فسحة الأرض، إنها في حرارة شمس افريقيا، إنها في انعدام الماء، إنها في حياة الترحل بين العرب، هنا تكمن قوته. ولا بد من إخضاعه، يجب القضاء عليه. وبدون هذا فإنكم لن تحصلوا على طائل».

(الماريشال بيجو، ألد اعداء الامير)

الفصل الثاني

الامير عبد القادر وادارة الحرب

١ ـ اعداء الداخل والخارج (١٨٣٣ م)
٢ ـ معاهدة (عبد القادر ـ دو ميشال) ١٨٣٤ م
٣ ـ معركة المقطع (٢٦ ـ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٥ م)
٤ ـ الانتقام الافرنسي، واحتلال (معسكر) ٦ كانون الاول ـ ديسمبر (١٨٣٥ م)
٥ ـ الصراع المرير على تلمسان (١٨٣٦ م)
٦ ـ معاهدة (عبد القادر ـ بيجو) ٣١ ـ ايار ـ مايو (١٨٣٧ م)
٧ ـ نقض المعاهدة ـ واستئناف الحرب (١٨٣٨ ـ ١٨٣٩ م)
٨ ـ سنوات الصراع المرير (١٨٤٠ ـ ١٨٤٤ م)
٩ ـ على حدود المغرب (١٨٤٥ ـ ١٨٤٧ م)
١٠ ـ وداعاً يا جزائر الاحرار (١٨٤٨ ـ ١٨٥٢)



كان الأمير عبد القادر دوماً على رأس وحداته وجنوده

١ - أعداء الداخل والخارج

(١٨٣٣)

بويع الامير عبد القادر (أميراً على الجزائر) في مدينة (معسكر) بتاريخ **٢٢** تشرين الثاني (نوفمبر) **١٨٣٢** م. غير أن هذه البيعة كانت محدودة، إذ لم يكن الذين بايعوا الأمير يمثلون الجزائر كلها. وقد عرف الامير منذ البداية، أن وحدة القيادة لبناء دولة الحرب هي العامل الاساسي للنجاح. فمضى لتحقيق هذه الوحدة، وعندما حاول بعض الزعماء المحليين الخروج على الطاعة والجماعة، استفتى العلماء والفقهاء فقرروا بالاجماع مقاتلة المرتدين، حتى لو قصروا في تنفيذ شرط واحد مثل أداء الضرائب ودفع الزكاة، وأرسل الامير عبد القادر بهذه الفتوى الى علماء مراكش يستشيرهم في شرعيتها، فأفتوا بصحتها وعلق عليها سلطان مراكش بما يلي: «**ان هذه الفتوى موافقة للسنة والقياس والاجماع وأن من عرض لتنفيذها، أو أولها تأويلاً آخر، فانه يعتبر من الظالمين، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**». وأصبح باستطاعة الأمير، الاستناد الى هذه الفتوى، لمحاربة اعداء الدين، اعداء الداخل، والذين كان بعضهم قد أخذ في توطيد صلاته بفرنسا، وبعضهم لا زال يحاربها غير أنه لا يرغب في الخضوع لسلطان هذا الشاب الذي لا يعتبر من وجهة نظرهم اكثر من

منافس لهم. وكان في طليعة هؤلاء (**سيدي العريبي**) وهو قائد قوي وله تأثير مطلق على قبيلة (فليته) في سهل الشلف ـ ناحية وهران ـ وكذلك (**الغماري**) قائد بني انجاد الذي رفض إطاعة الأمير. وشعر (**محمد بن نونة**) الذي كان يجب أن يقول أنه يحكم تلمسان باسم سلطان المغرب، انه من السفالة الاعتراف بالولاء للامير عبد القادر. **أما** (**مصطفى بن اسماعيل**) الذي كان محارباً قديماً ومجرباً والذي ابيضّ شعر رأسه في خدمة الاتراك (كزعيم للمخزن)[1] فانه قد عبر عن تقززه من تقبيل يد (ولد ما يزال أمرد) حسب تعبيره.

ومضت أشهر ثلاثة فقط على (البيعة) يوم وجه الامير عبد القادر دعوة لاجتماع عام في مدينة معسكر تحضره جميع القوى يوم ١٨ ايار ـ مايو ـ **١٨٣٣** م. واستجابت القبائل الكبرى في التل والصحراء لهذه الدعوة الخيرة، ورحبت بها، أما قبائل المخزن، وهي التي طالما كانت آلة في يد الاتراك، فقد تملص بعضها واتخذ موقفاً سلبياً، في حين رد بعضها الآخر على الدعوة رداً مهيناً، وكان من الصعب على مثل هؤلاء التخلص من الفوضى التي الفوها في هذه الفترة. وأثناء ذلك، كان (بنو هاشم ـ الغرابة) وهم قبيلة الأمير، قد انطلقوا نحو وهران، واخذوا في الاشتباك مع القوات الافرنسية وازعاجها. واجتمعت القبائل في اليوم المحدد، (يوم ١٨ ـ ايار ـ مايو) واصطفت للعرض المهيب، فكان هناك (٨) آلاف فارس و(ألف) راجل. ونشر الامير علمه الخاص في سهل (خصيبية) ـ وهو علم كبير ابيض تتوسطه يد مفتوحة ـ وقد رفع أمام الجمهور الغفير في ابتهاج واحتفال كبير. وبعد ان استعرض الصفوف على فرسه. وخاطب الجمهور ببعض العبارات

---

(١) المخزن: تعبير يقصد منه تلك القبائل التي تحالفت مع الاتراك العثمانيين.

القصيرة الصارمة، والتي كانت كافية لاثارة الحماسة وتفجير الغضب ضد اعداء الدين، قادهم في اتجاه وهران، ووصل الامير وقواته في الوقت المناسب لدعم قبيلته (بنو هاشم) والتي كانت تتعرض في ذلك اليوم لهجوم قوي شنه ضدها القائد الافرنسي (دو ميشيل). فكان أول ما فعله هو أن قسم قوته الى قسمين، وجه القسم الأول منها لمهاجمة الجناح الأيسر للقوات الافرنسية، بينما قاد هو القسم الثاني للهجوم على حصن أقامه الجنرال الافرنسي في مكان يدعى (الكرمة). وكانت هناك حامية تدافع عن هذا الحصن تضم فرقة مشاة - الف جندي تقريباً - قطعتين من المدفعية بالاضافة الى فصيلة من قناصي افريقية. وقد حاول الامير وفرسانه تسلق الاسوار، غير أن حامية الحصن نجحت في احباط المحاولة، وعندها قاد الامير عبد القادر قواته ودعم القسم الاول الذي كان يشتبك مع الافرنسيين في السهل. وقد بذلت القوات الافرنسية جهداً كبيراً للصمود امام الهجمات الكثيفة والضربات المباغتة للمجاهدين، غير ان هؤلاء استطاعوا سحق الصفوف المنظمة للمشاة ودمروا التشكيلات المقاتلة، واستمرت المعركة القاسية طوال النهار، حتى اذا ما هبط الليل قرر (دي ميشيل) سحب قواته الممزقة تحت حماية مدفعيته، وتحت ستار الظلام.

توقفت الاشتباكات في الايام التالية، ولم يقبل الأمير عبد القادر الخضوع لهذا الجمود، فنظم قوة من مائة فارس، وقادها بنفسه لنصب كمين في أجمة قريبة من وهران، كانت القوات الافرنسية قد اعتادت على دفع فصائل من فرسانها اليها للعمل كمراكز مراقبة متقدمة. وظهرت سرية من القناصة الافرنسيين في الموعد المعتاد. وعندما

وصلت الى موقع الكمين فتح الامير عبد القادر ورجاله النار عليها فمزقوها على الفور. وسقط عدد من قتلى الاعداء كما وقع (٣٠) أسيراً في قبضة المجاهدين واكتفى الامير بما حققه من نصر محدود في هذه المعركة التي اراد فيها اختبار رجاله وبعث الثقة في نفوسهم. وعاد الى (معسكر) ليقطف ثمار عمليته التي انعكست على الصفحة الداخلية للبلاد. إذ اسرع اليه عدد كبير من الرؤساء والشيوخ الذين رفضوا الخضوع لسلطته حتى الان، ليقدموا له دعمهم وولاءهم. وكان في طليعة هؤلاء (الحاج ابن قيسى) الذي كان مرابطاً شهيراً، والذي جاء ومعه وحده نواباً يمثلون عشرين قبيلةصحراوية.

أصبح بالامكان توجيه الصراع ضد اعداء الداخل، حيث كان (سيدي العريبي) زعيم قبيلة (فليتة) التي تضم بطون كثيرة وعشائر عديدة، يحشد قواته، ويعلن صراحة أنه (سيوجهها ضد ابن محيى الدين الطموح). وقد باغته الامير عبد القادر بقوة تضم (٥) آلاف فارس انطلقت للهجوم وهي تطلق نيرانها بكثافة، وتصرخ بصيحات الجهاد، مما شل قدرة (سيدي العريبي) وحرمه من كل إمكانات الدفاع، فمضت قوات الأمير وهي، تقتلع الخيام، وتجمع الأسرى، وتقود الماشية، ولم يحصل (سيدي العريبي) على العفو عن جرائم الماضي وقبول التزامه بالمحافظة على الأمن - في المستقبل - الا بعد أن أرسل تعهداً مكتوباً بالطاعة، وتقديم ابنه رهينة لدى الامير. وضمن بذلك خضوع أقوى المنافسين، كما ضمن زوال تلك الاعمال الشائنة من سلب للاموال وقطع للطرق وتهديد للنفوس، ولكن، وقبل ان يغادر الامير عبد القادر البطحاء (المعروفة الان بهبزة) بلغه انتفاض قبائل عكرمة وبني مديان ، فسار اليهم وحثهم على الرجوع عن غيهم، فاظهروا تصميمهم على الخلاف والتمرد. فأغار عليهم،

واستولى على ممتلكاتهم، غير انهم لم يلبثوا أن أظهروا الندم، فرد اليهم امواهم، وضمن لهم أمنهم، وطلب اليهم الالتفاف حوله لمحاربة الاعداء. فاستجابوا لطلبه. وعملوا على دعم الوطن ورفع راية الجهاد بدلاً من راية العصيان. وبينما كان الامير في سبيله لاخماد الفتن والقضاء على الثورات المضادة، حاول عمه وأخوه مصطفى استثارة القبائل ضده، **واتفق عمه واخوه مع زاوية الدرقاوة، وكذلك مع المرابطين في (الونشر يس) وشكلوا كتلة تضم (٦٠٠) مقاتل**، وحاول الامير استمالتهم، غير أنهم رفضوا الاذعان لرغبته، وصمموا على مجابهته، فاضطر لمحاربتهم، وقد تغلب عليهم وفروا هاربين، أما عمه وأخوه، فقد وجدا لهم ملجأ في الجبال، ثم طلبا العفو، فعفا عنهما، وفرض على المهزومين مائة حصان والف بندقية وخمسمائة سلطاني فضة كضريبة. ومضى الامير عبد القادر وقواته في سهل (الشلف) الواسع والمناطق المجاورة له، حيث انضم اليه عدد من القبائل الهامة، وخاصة القبائل الساكنة في بلدة (مليانة) والتي كانت خاضعة في ذلك الوقت للشيخ (ولد السائح) فخطبت وده، ووضعت جميع امكاناتها تحت تصرفه. كما انضم اليه رؤساء قبائل (جحوط، ومرايا صومال وابن مناد وابن مناصر). وعندما وصل الى (مليانة) اتصل بأسرة الوالي الصالح (سيدي أحمد بن يوسف) الذين يتمتعون بصيت كبير، فقدم اعضاء هذه الاسرة خدمات جليلة، وتقدم علاوة على هؤلاء مشايخ (جندل) وجميع الجنود الذي كانوا تحت قيادتهم. وقابلوا الأمير بحفاوة تامة وتوقف الامير فترة في (مليانة) ريثما تمكن من اعادة تنظيم امورها وعين عليها (خليفة) من انصاره. **جاء الان دور مدينة (ارزيو) وحاكمها القاضي (سيدي أحمد بن الطاهر)** الذي كان قد خالف تعليمات الامير بعدم اجراء أي اتصال

مع الافرنسيين، فأقدم بصورة علنية على إمداد الافرنسيين بالماشية والعلف، وحتى الخيول التي كان يعتبر بيعها للافرنسيين جريمة نكراء لا تغتفر. وقد حاول الامير ايقافه عن الاسترسال في غيه، فكتب اليه محذراً من سوء تصرفاته، ومنذراً له من العقاب الشديد ان هو صمم على الاستمرار في سلوكه، غير أن (القاضي الطاهر) لم يتمكن من مقاومة إغراء الارباح الضخمة التي كانت تؤمنها له تجارته، فاستمر في تعامله مع الافرنسيين معتمداً على دعمهم له ووعودهم بحمايته. ودخل الامير عبد القادر (مدينة ارزيو) بصورة مباغتة وألقى القبض على القاضي، واقتاده مثقلاً بالقيود الى سجن (معسكر)، حيث اصدر تعليماته الصارمة بعدم اتخاذ أي اجراء ضده في الوقت الحاضر. وركب في اتجاه (بني عامر) لمعالجة بعض القضايا التي اضطرته للبقاء هناك عدة ايام. وكان في نية عبد القادر اعطاء الفرصة للقاضي حتى يفتدي نفسه (التي كان قد أحلها) بمبلغ (٥) آلاف فرنك. ولكنه حين عاد الى معسكر وجد أن القاضي قد قتل، وقد اذهله هذا الأمر، وعلم ان والده (محيي الدين) هو الذي امر بمحاكمته، وأصدرت المحكمة ضده حكمًا بالعقاب الصارم. ونفذ فيه الحكم على الفور، وقد فقئت عيناه (وقطعت يداه ورجلاه ووضع في ساحة الصراية حتى مات بعد ثلاثة ايام بحسب ما تذكره بعض المصادر[1]) وكان لا بد للامير عبد القادر من تحمل تبعات هذا العمل، على الرغم من براءته منه.

أراد الامير عبد القادر دعم قدرته بالاستيلاء على تلمسان (التي تبعد مسافة ستين ميلاً تقريباً الى الجنوب ـ الغربي من وهران) وهي

(١) تحفة الزائر (الأمير محمد) ١ / ١٠٧

تقع على نجد في سفح جبال منحدرة عالية، وهي مشهورة بكثافة وقوة أسوارها التي طالما أعيت أعمال الحصار. وكانت قوة عبد القادر الرئيسية في هذه الفترة تتمثل في (بني عامر وبني هاشم). وبعد أن أخذ معه وحدات قوية من هذه القبائل اقترب من (تلمسان) وكان أهاليها منقسمين الى حزبين: الاتراك والكراغلة. وكان الكراغلة يحتلون القلعة ويدافعون عنها، في حين كان العرب يعملون تحت قيادة (نونة) المتمرد والذي سبقت الاشارة اليه. وقد طلب عبد القادر من (نونة) الاستسلام، ولكنه رفضه. غير أن المقاومة التي حاولها سرعان ما انهارت، لأنه بينما كان عبد القادر يهاجمه من جهة فتح عليه الكراغلة النار من القلعة. وبعد انتصاره في تلمسان عامل عبد القادر أهلها بكل احترام. لقد كان يأمل أن يعترف الكراغلة بسيادته. غير أنهم رفضوا كل العروض التي تقدم اليهم بها لأنهم شعروا بالأمان في تحصيناتهم، كما رفضوا البقاء معه على صلات طيبة. وما دام هو لا يملك المدفعية التي يخضعهم بها فقد قبل المساومة، وأقام أحد مساعديه حاكمًا على المدينة ثم عاد الى (معسكر). **وفي الطريق سمع بنعي أبيه. وقد شعر الابن الشجاع بفداحة الخطب الذي تركه فقدان الوالد الذي خلع عليه منذ طفولته كل حب وود، والذي كان يعامله دائمًا كصديق مقرب وزميل، والذي يدين له في الحقيقة بالمكانة التي وصل اليها. ولما كان لا يجد الوقت للدخول في عزلة مؤقتة يقتضيها المصاب الاليم، فانه لم يستطع سوى ان يتبع جثمان والده الى مثواه الاخير**

كان القائد الافرنسي (دي ميشيل) قد استولى على (أرزيو ومستغانم) ولم يكن باستطاعة (عبد القادر) اضاعة لحظة واحدة ـ لقد كان واجباً عليه أن يبذل قصارى جهده لايقاف هذا التوسع الافرنسي

في اقليم وهران. وفي يوم (٢ آب ـ اغسطس ـ ١٨٣٣) كان الامير عبد القادر قد وصل بقواته الى أسوار مستغانم التي هاجمها على الفور. وبعد ان ترك (دو ميشيل) معسكره ليدافع عن نفسه، عاد تواً الى وهران. لقد كان يأمل في الافادة من وجود الامير عبد القادر أمام مستغانم للقيام بحركة تسلل ناجحة طالما فكر فيها. وفي يوم (٥ ـ آب ـ أغسطس) وهو اليوم التالي لوصوله الى وهران، أرسل (دو ميشيل) قوة من (٣) آلاف فارس وراجل مع ثلاث مدافع ميدان لمهاجمة (الدوائر والزمالة) وهما القبيلتان اللتان تسببتا في خسائر فادحة للافرنسيين عند قيامهما بتنفيذ الحصار الذي أمر به عبد القادر. وفي فجر يوم ٦ آب ـ أغسطس ـ حل الجيش الافرنسي بمضارب الخيام العربية. وفتحت المدفعية نيرانها على الفور، وتقدم المشاة في صفين وأطلق الفرسان النار. ولم يقم العرب الذين اخذوا على غرة فاذهلتهم المباغتة بأي رد فعل مناسب، فرفعوا خيامهم، وتركوا وراءهم مواشيهم وكثيراً من النساء والأطفال في يد العدو وفجأة بدأت حركة فرارهم تتوقف، بينما كان الافرنسيون في حالة من الذهول، لقد اخذت قوات العرب بالتجمع، واخذت أعدادهم في التزايد بسرعة، وتحول انسحابهم الى دفاع، ثم تحول هذا الدفاع الى هجوم، وحدث ذلك كله كما لو كانت عصا سحرية قد صنعته.. لقد وصل الأمير عبد القادر...

كان الامير قد شعر بنوايا العدو عند مغادرته (مستغانم) فتخلى عن إدارة الحصار في مستغانم وسارع الى النقطة التي كان يتهددها خطر أكبر، وأمكن له الوصول في اللحظة المناسبة تماماً. ولم يكلفه تحويل المعركة كثيراً من الجهد، فقد أسرع المشاة الافرنسيون

بالتراجع، ونجح بعضهم في تشكيل تربيعات مقاتلة بسرعة، غير أن ذلك جعل صفوفهم غير كاملة. أما الفرسان فقد اطلقوا العنان لخيولهم، ولم يبق غير المدافع التي قامت بدورها بصورة جيدة. وتخلى الجنود الافرنسيون عن غنائمهم التي اكتسبوها بسهولة. وداهمتهم عضة الجوع والظمأ علاوة على لهيب الشمس الحارقة فوق رؤوسهم، وفي الحال، أحاط بهم العرب من كل جانب. وهنا صاح عبد القادر بقومه (احرقوا السهل) وسرعان ما ركض مئات الفرسان بعيداً، وأشعلوا النار في الاعشاب الجافة والأجمات الممتدة وراء خطوط الافرنسيين. وقد كان على الجنود المنكوبين الذين تأخروا في تقدمهم بسبب الجرحى الذين أبى عليهم الشرف تركهم، أن يمشوا فوق الجمر، وأن يخوضوا معركة التقدم عبر امواج اللهيب. غير أن هذه المقاومة لم تلبث ان انهارت عندما تجاوزت المصاعب قدرة احتمال الطاقة البشرية. فألقى كثيرون منهم بأسلحتهم، واختنق بعضهم بالدخان، وقذف آخرون بأنفسهم فوق الأرض وهم في حالة من اليأس. ومكثوا يتعجلون الموت المحيط بهم، وعلم (دي ميشيل) بالنكبة التي نزلت بالحملة ـ عن طريق بعض الجند الفارين ـ فأمر على الفور بتحرك كل القوى الافرنسية في معسكر وهران لنجدة رفاقهم، غير ان هؤلاء وصلوا متأخرين ولم يتمكنوا من القيام بأي عمل بعد ان ابيدت قوات الحملة السابقة إبادة تامة.

لم يتوقف الامير عبد القادر فوق ميدان المعركة، الا بقدر ما تحتاجه عملية مطاردة القوات الافرنسية وتدمير فلولها، ثم قاد قواته ورجع الى (مستغانم) لتشديد الحصار عليها وكان مشاته قد توغلوا في الضواحي، واخذوا في مهاجمة احدى القلاع القريبة من البحر. وعندما ظهرت سفينة شراعية فرنسية واطلقت النار عليهم، خلع

العرب ملابسهم، وسبحوا في اتجاهها وهم يحملون بنادقهم فوق رؤوسهم، وحاولوا الصعود الى السفينة، غير أن بحارة السفينة استطاعوا دحرهم وإبعادهم.

بدأ الامير عبد القادر بحفر الملاغم لتدمير الاسوار في محاولة منه للتعويض عن غياب المدفعية، ووصلت عملية التلغيم حتى أسفل السور، فأحدثت فيه ثغرة محدودة، وصدرت الاوامر بالهجوم العام واندفع العرب بحماسة غير ان قوات الافرنسيين التي اصطفت فوق جانبي أعلى السور، امكن لهم ايقاف حدة الهجوم، وركزوا نيرانهم الكثيفة على الثغرات، مما اضطر العرب للتوقف، ثم البدء بالتراجع في حالة من الفوضى بعد صراع مرير يائس. ووجد الامير ان موارده المعدة للحملة قد نضبت، فرفع الحصار وعاد الى قاعدته معسكر.

كان لهذه المعركة نتائجها البعيدة على اقليم (وهران) والقبائل المنتشرة فيه، إذ شعرت هذه القبائل بشدة وطأة الافرنسيين وثباتهم-رغم الهزيمة التي نزلت بهم. وفي الوقت ذاته كانت معركة (المدية) قد تركت نتائج مضادة، إذ أنها دفعت قائد القوات الافرنسية (دو ميشيل) الى البحث عن طرائق اخرى لضرب العرب بعضهم ببعض واستنزاف قدرتهم، وإضعافهم جميعاً، مما يسمح بإخضاعهم بحد أدنى من الجهد.

٢ـ معاهدة عبد القادرـ دو ميشال
(١٨٣٤م)

تقع مدينة (المدية) الى جوار مدينة (مليانة)، ونظراً لأهمية موقعها، فقد حاول الافرنسيون الاستيلاء عليها، وفي الوقت ذاته كان (باي قسنطينة) يفكر باحتلالها نظراً لأنها تقع على مفترق الطرق، ولأنها همزة الوصل مع المغرب، ولذلك قرر الامير عبد القادر احتلالها ليتخذها ذريعة للهجوم على (باي قسنطينة). غير أن أصدقاء الأمير القدامى (الحاج موسى) وهو من اسرة شريفة قد أصبح من اعدائه، وأخذ في استثارة جميع القبائل العربية، نظراً لمناهضته للباي حاكم قسنطينة الذي كان يخوض صراعاً مريراً وجهاداً مشرفاً ضد الكفار. ونادى (الحاج موسى) جهاراً، فطالب الناس بالجهاد، ورفع رايته، وجاءته جموع المجاهدين من (باي قسنطينة) و (باي تونس) فامكن له بذلك حشد قوة من (١٢٠٠) فارس. وقادهم الى باب (المدية) وطلب من حراسها ان يفتحوا له باب الحصن، فامتنعوا، ودارت بين الطرفين مجموعة من المعارك استمرت اسبوعين انتهت بنجاح (الحاج موسى) في فرض إرادته على (المدية) التي فتحت له ابوابها، واتفقت معه على دعمه بالمؤن لمهاجمة الافرنسيين. غير ان الحاج موسى طلب الى الامير عبد القادر قبل قيامه بالهجوم أن ينضم اليه ليجاهدوا معاً في سبيل الله.

وكان الامير عبد القادر في هذه الفترة قد بدأ اتصالاته مع الافرنسيين لتوقيع (هدنة) فأجاب (الحاج موسى) بأنه اتفق مع الافرنسيين. وان دينه يأمره بتنفيذ الاتفاق، وانه يمنع (الحاج موسى) منعاً باتاً من أن يمر على أراضيه عند تقدمه لمهاجمة الافرنسيين. ومضت ثلاثة ايام ظهر للحاج موسى بعدها أن يهاجم الامير، فخاض ضده معركة قصيرة وحاسمة، انتهت بمصرع (٦٠) مقاتلاً من رجال الحاج موسى ووقوع (٩٥) أسيراً في قبضة الامير عبد القادر. الذي أسرت قواته ايضاً (٢٦٠) امرأة وولداً، واضطر (الحاج موسى) للانسحاب تاركاً وراءه الغنائم والمواشي لخصمه الامير عبد القادر الذي استثمر الموقف فأسرع بالاستيلاء على (المدية) ودمر جميع الذين أيدوا الحاج موسى ووقفوا الى جانبه، وبصورة خاصة منهم الكراغلة.

كان الجنرال(تريزيل) [١] قائد وهران يتابع الموقف، وفي اعتقاده ان القبائل ستنتصر على الامير عبد القادر وعندئذ يمكنه قيادة قواته ضدها لتدميرها، وبذلك يكون قد شارك في هزيمة الأمير، وفي كسب مناطق شاسعة يضمها للحكم الافرنسي. ومن اجل ذلك نظم شبكة من الجاسوسية لزيادة تدهور الموقف، ودفع لجواسيسه مبالغ طائلة، كما وجه رسائل الى زعماء القبائل تحمل وعوداً وامنيات مغرية. غير أن الاخبار وصلته بسرعة وهي تشير الى انتصار الامير على منافسيه، ليس ذلك فحسب، بل ان بعض القبائل انضوى تحت راية الامير. وعندئذ اسرع (تريزيل) فوقع معاهدة مع (ود بن اسماعيل) زعيم (الدوائر والزمالة)

---

(١) تريزيل: (CAMILLE TREZEL) جنرال فرنسي من مواليد باريس (١٧٨٠-١٨٦٠) اكتسب شهرة في الجزائر، وبصورة خاصة في معركة المقطع (١٨٣٥) واصبح وزيراً للحرب في فرنسا سنة ١٨٤٧ م.

في اقليم وهران نصت على ما يلي:

اولاً: أن تكون تلك القبائل تحت حماية فرنسا وان تقف الى جانبها.

ثانياً: تخضع هذه القبائل لمن يولى منهم، بالموافقة مع القائد لولاية - ايالة - وهران.

ثالثاً: تدفع هذه القبائل ما كانت تدفعه قبل اليوم للحكومة الجزائرية ايام الحكم العثماني أو ما كانت تدفعه للامير عبد القادر.

رابعاً: لا يسوغ لهذه القبائل ان تأتي أمراً الا بعد الحصول على الإذن من حاكم وهران.

وعلم الامير عبد القادر بهذا الانحراف الثقيل، فجمع الناس وقام فيهم خطيباً فقال:

«الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله واصحابه. أما بعد. فاعلموا أن الله تعالى قلدني هذا الأمر للمدافعة والدفاع عن الدين والوطن، وقد بلغكم خبر هذا الرجل - ابن اسماعيل المتنصر - فان تركته وشأنه فإني أخاف على الوطن أن تغتاله غوائل الافرنسيين على حين غفلة. وينشأ عن ذلك من المفاسد ما يعسر علينا اصلاحه» وبعد ذلك قرر الحاضرون على ضرورة محاربته، وكرروا له أنهم يؤيدونه.

زعمت (الدوائر والزمالة) أنها خضعت لفرنسا بسبب قربها من مواقعها، غير أن هذه الذريعة لم تقنع الامير، إذ لا يمكن له القبول بذريعة (القسوة والمعاناة) ان تكون سبباً للخيانة، لا سيما وانه اذا قبل

الأخذ بهذه الذريعة، فان كل مخططاته لحصار الأعداء وتحرير البلاد ستنهار من اسسها. وفي هذا الوقت، رفع حاكم وهران (تريزيل) المعاهدة التي وقعها مع (ود بن اسماعيل) الى الحاكم العام (دو ميشال) الذي رد على ذلك بأن (هذا الود بن اسماعيل) اضعف من أن يقف في مواجهة الأمير، وانه من الافضل التعامل مع (الامير مباشرة). ولكنه- أي دو ميشال- كان في حاجة للمناسبةالتي تفتح له مجال الحوار مع الامير، وجاءت هذه المناسبة مع نهاية تشرين الاول - اكتوبر - ١٨٣٣ م. عندما توجه عربي (اسمه قدور) من قبيلة (البرجية) الى مدينة ارزيو، وباع مواشيه الى الافرنسيين. وعند رحيله، طلب من القائد الافرنسي أن يعين له قوة لمرافقته لانه بات يخشى بطش جند الأمير عبد القادر. واستجاب القائد الافرنسي لهذا الطلب، فكلف اربعة فرسان بموافقته، غير ان هؤلاء لم يبتعدوا عن المدينة اكثر من كيلومترات قليلة حتى انقضت عليهم قوة من المجاهدين فقتلت أحد الفرسان، واقتادت البقية أسرى إلى مدينة (معسكر). واستقبل (دو ميشيل) خبر هذا الحادث بالغبطة، اذ وجد الفرصة لكتابة رسالة للأمير عبد القادر جاء فيها ما يلي: « إنني لا أتردد مطلقاً في أن اكون البادىء في اتخاذ هذه الخطوة، على الرغم من أن وضعي لا يسمح لي بذلك، ولكن شعوري الإنساني يحملني على الكتابة اليك، لذلك فإنني أطلب حرية اولئك الإفرنسيين الذين سقطوا في كمين بينما كانوا يحمون عربياً. وإنني لا أتوقع أن تجعل إطلاق سراحهم مرهوناً بشروط معينة، ما دمت أنا قد أطلقت في الحال سراح بعض أفراد قبائل الزمالة وقبائل الغرابة، عندما سقطوا في يدي نتيجة الحرب وأطلقتهم من غير شروط، بل لقد عاملتهم أحسن معاملة، وبناء عليه آمل من سمو الأمير إذا كان يرغب في أن يأخذ من

التقدير قدراً عظيماً، ألا يطيل المراجعات، وأن ينعم بإطلاق الاسرى».

ولم يرغب الامير من عدوه أن ينال ما وصفه (بالقدر العظيم من التقدير) فتجاهل الرد فكتب اليه (دي ميشيل) رسالة ثانية جاء فيها: «من الجنرال دي ميشيل الى الامير عبد القادر بن محيي الدين. لي امل بأن تطلق الحرية للأسرى الأربعة التعيسي الحظ والمحبوسين في قلعة معسكر. وما كنت اتردد عن السعي لديكم فيما تمنعني وظيفتي الرسمية عنه، حيث تدفعني الانسانية اليه.

ولعلمي أن البشر الراقين الى الدرجات العليا عليهم أن يمتازوا بأعمال كريمة دالة على التفاوت الذي وضعه الله بينهم، فأرجو الافراج عن الافرنسيين الذين وقعوا في شر مكيدة وهم في الدفاع عن بعض العرب لتخليصهم من انتقام أبناء جنسهم. ولا أظن أنكم تضعون في طريق ذلك العقبات، لانكم اذا رغبتم ان تعدوا من كبار أهل الأرض لا تتأخروا عن اظهار أخلاقكم، واذا أوقعت الحرب بين يدي بعض أتباعكم فأنا أعدكم بارجاعهم دون تعويض- او مبادلة».

ومرة ثانية تجاهل الأمير عبد القادر رسالة (دي ميشيل) فجاءته الرسالة الثالثة وفيها:

«الى الأمير عبد القادر بن محيي الدين.

بما أنني لم أتلق جواباً على رسالتي التي بعثتها اليكم منذ شهر، فأحب إلي القول بأنه لم تصلكم من أنكم لم تلتفتوا الى قبول طلبي وعليه، جئت للمرة الثالثة اكرر طلب إطلاق سراح الاسرى الافرنسيين المحتجزين لديكم، لأنهم لم يؤخذوا في ساحة الحرب، بل سقطوا في أقبح خدعة واسوأ مكيدة، وعلي أن أذكركم أن فرنسا هي أقوى دولة في الدنيا، فليس من الحكمة ان تستمروا في مقاومتكم لها، واذا كان

باستطاعتي اليوم أن انتصر عليكم قبل وصول النجدات التي انتظرها فما تكون حالتكم اذا فرغ صبر فرنسا نحو العرب، وأرسلت ما تهيؤه لي، فعندها تهاجمكم قواتنا فتبعثركم كما يبعثر الهوى الرمال. فاذا رغبتم البقاء في مركزكم السامي، فما عليكم الا الاجابة على دعوتي لعقد معاهدة بيننا، وتعود القبائل لزراعة حقولها الخصبة حتى تقدم ما يحتاجه الشعب العظيم».

عند ذلك، لم يجد الامير عبد القادر حرجاً في الرد على هذه الرسالة المثيرة، فكتب رسالة جاء فيها ما يلي:

«من الامير عبد القادر بن محيى الدين - الى الجنرال دو ميشيل، اما بعد:

فقد وصلنا كتابكم المتضمن أفضل النصائح، فقدرناها قدرها، وعلمنا أنكم تحثونا في كتبكم الثلاثة على الإفراج عن الأسرى، وتندبون حظكم، مع أننا نعتني بشأنهم غاية الاعتناء، وليست عملية الافراج عنهم ذات أهمية عندنا، غير أن الحالة التي نحن بها لا تسمح لنا أن نردهم دون فدية، فاذا رغبتم في الاتفاق قبل تسليم الأسرى اليكم عند المعاهدة بيننا، لأن ديننا يمنعنا من طلب الصلح ابتداء، ويسمح لنا بقبوله إذا عرض علينا. وان الثقة التي منحتمونا اياها في تحاريركم حملتنا على أن نبادلكم المخابرة، وان المفاوضة التي تطلبونها تقتضي ان تكون مبنية على شروط محترمة منا ومنكم، ولا يحصل الاتفاق الا اذا عرفتوني شروطكم وما تطلبونه مني، وأنا أعرفكم بمثلها والله المعين. وكيف تفاخروني بقوة فرنسا، ولا تقدرون القوة الاسلامية، مع أن القرون الماضية أعدل شاهد على قوة الاسلام وانتصاراتهم على اعدائهم، ونحن وان كنا ضعفاء على حد زعمكم،

فقوتنا بالله الذي لا إله إلا هو ولا شريك له. ولا ندعي بأن الظفر مكتوب لنا دائمًا. بل نعلم أن الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا، عمر أن الموت مسر لنا، وليس لنا ثقة الا بالله وحده لا شريك له... وان دوي الرصاص وصهيل الخيل في الحرب لألذ لنا من الصوت الرخيم، فاذا صممتم على عقد صلات ودية بيننا وبينكم، فأفيدونا حتى نرسل اليكم رجلين من كبار قومنا، مأذونين بالمفاوضة معكم، وحينئذ تتم أمانيكم بمعونة الله. ولا تظنوا بأننا نأسف اذا اضطررنا الى ترك البلاد، لأننا نعلم يقيناً أن الأرض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده. وان سلمنا وراثتها، فحيث ما كنا نجد أمتنا. وقد ظهر لنا من مضمون كتبكم انكم تحتقرون قوة العرب مع دوام استعدادهم للقتال، ومسابقتهم للنزال في كل زمان ومكان، واذا عدتم الى كتب التاريخ، قرأتم ما أجروه في آسيا وجهات الشام من الجرأة والثبات والاقدام والفتوحات التي أظهرها الله على أيديهم».

وجاء رد (دو ميشيل) في رسالة أكد فيها رغبة فرنسا بالتفاهم مع الامير عبد القادر، ورأى الامير الرد على مضمون الرسالة بما حملته رسالته التالية:

«بعد التحية، وصلني كتابك الذي أظهرت فيه رغبتك في الحصول على اطلاق سراح الأسرى الذين أوقعتهم الأقدار الربانية بين ايديكم. وقد فهمت جميع ما تضمنته رسائلك وما اشتملت عليه من تكرار الطلب. ومن المعلوم عندكم أن جميع الأسرى الذين وقعوا في أيدي عساكركم في ميادين الحرب، لم اتعرض لكم ولا لمن قبلكم في اطلاقهم، ولا أتعب أفكاركم بمراسلة قط، لان حكمهم عندي حكم الاموات، وموتهم أعتبره حياة لهم، غير أني كنت أتألم عليهم شفقة

ورحمة. وقولكم أن هؤلاء الاسرى الذين تطلبون اطلاق سراحهم ما كان خروجهم لأمر يتعلق بكم، بل كانوا يحمون عربياً من انتقام ابناء وطنه، فهذا لا أعتبره وسيلة لاطلاقهم، فان المحافظ والمحافظ عليه كلاهما أعداء لنا، وانتهاز الفرصة في الانتقام منهم غاية مقصودة، وسائر العرب الذين عندكم أوغاد وأرذال، يجهلون واجباتهم الدينية، هذا واني رأيتك تفتخر بأنك أطلقت الأسرى من الغرابة والزمالة، من غير شروط، مع انك لو راجعت أفكارك لوجدت أن رحمتك انما كانت لأناس استظلوا بظلكم، واحتموا بحماكم، وكانوا عيوناً لكم على المسلمين، ويخدمونكم بكامل الصدق. ومع ذلك فان عساكركم قد سلبوهم كل ما يملكونه. فلو كان هذا المعروف الذي تذرعتم به مع غير هؤلاء كالحشم وبني عامر مثلاً، لكان يحق لكم الفخر، وكنتم تستحقون الشكر. وعلى كل حال، فمتى خرجتم من وهران على مسافة يوم أو يومين، يظهر للعيان من يستحق الفخر منا».

عند هذه المرحلة توقفت المراسلات التمهيدية، واستمر الصراع. ووجدت القوات الافرنسية انها تجابه اكثر من جبهة، وأنها تتلقى الهزيمة تلو الهزيمة على كافة الجبهات، فقررت مهادنة بعض الجبهات للتفرغ للجبهات الاخرى، وكان يهمها إسكات الجبهة الاقوى ـ جبهة الامير عبد القادر ـ والذي كان بدوره يحتاج لنوع من الهدنة حتى يتفرغ جزئياً لبناء دولته وتطوير قدراته. وعاد (دو ميشيل) للامساك بالمبادأة، فأرسل رسالة جاء فيها:

«الى سمو الامير عبد القادر:

حيث لا تجدني ايها الامير غافلاً أبداً عن كل فعل حسن، فاذا

كان سموكم يريد ان نتباحث في أمر المعاهدة، فأنا مستعد لذلك، مع الأمل بأنه يمكن الحصول على معاهدة موفقة يتوقف بها سفك دماء أمتين اقتضت الارادة الالهية الا تكون تحت سلطة واحدة».

وفضل الأمير عبد القادر في هذه المرحلة، اظهار موقف اللامبالاة من العرض الافرنسي، فلم يرد على الرسالة واستخدم في الوقت ذاته مندوبه في وهران(اليهودي مردخاي عمار)لتهدئة ثائرة (دو ميشيل) من عدم الرد، واختلاق المعاذير المناسبة. فاضطر (دو ميشيل) لكتابة رسالة جديدة يرد عليها الامير بما يلي: «وصلتني رسالتك، وفهمت مضمونها، ويسرني أن اجد عواطفك تتفق مع عواطفي. انني اشعر بثقة نحو نواياك المخلصة، ويمكنك ان تثق بأن أي التزام يمكن أن نتوصل اليه سيكون محل احترام من جانبي، انني ارسل اليك ضابطين من جيشي، وهما (مولود ـ مليود ـ بن عراش، وولد محمود) وسيجتمعان خارج وهران (بمردخاي عمار) وسيعلمانه بكل المقترحات فاذا قبلتها تستطيع أن ترسل الي، وعندئذ سنكتب معاهدة تقضي على البغضاء والعداوة اللتين تفصلاننا الان عن بعضنا، وتحل محلها صداقة لا انفصام لها. ويمكنك الاعتماد علي لانني لم اخل ابداً عن كلمتي».

تمت المقابلة المقترحة يوم ٤ شباط ـ فبراير ـ ١٨٣٤م

حمل ابن عراش شروط دو ميشيل يوم ٢٥ شباط ـ فبراير ـ ١٨٣٤. وجاء فيها:

١ ـ تتوقف الحرب منذ اليوم بين العرب والافرنسيين.

٢ ـ ستكون عادات المسلمين وشرائعهم الدينية موضع الاحترام.

٣ ـ يتم اطلاق سراح الأسرى الإفرنسيين.
٤ ـ تبقى الاسواق التجارية حرة.
٥ ـ يعيد العرب كل هارب إفرنسي.
٦ ـ يتنقل كل مسيحي داخل البلاد، على ان يحمل جواز سفر ممهور بخاتم قنصل عبد القادر وختم الجنرال دو ميشال.

ووضع الامير شروطه، ثم دمجت هذه الشروط في معاهدة واحدة حملت اسم (معاهدة الامير عبد القادر ـ الجنرال دو ميشال)[1].

الأمر الواضح هو أن الامير عبد القادر قد اراد لهذه المعاهدة ان تكون اكثر من هدنة، اما الإدارة الإفرنسية فارادتها أقل من ذلك. وظهر ذلك في المهمة التي حددتها الإدارة الإفرنسية لقنصلها لدى الأمير عبد القادر وهو (عبد الله ميسون) الذي كان من مماليك الأمراء المصريين ثم تطوع في الجيش الافرنسي، وأخلص في خدمة فرنسا، فأرسلته الى عاصمة الأمير وكلفته بالتالي:

أولاً: أن يكثر اتصالاته برجال ديوان الأمير والوزراء والمسؤولين في ولاية ـ ايالة ـ وهران وإغداق الاموال عليهم حتى يميل هؤلاء الى القيادة الافرنسية، وحتى يمكن له الحصول على اسرارهم، والاستعانة بهم إذا ما فكر الأمير بنقض المعاهدة.

ثانياً: الاندماج بالشعب، مستفيداً من أصله العربي، لإبراز قوة فرنسا وادخال الرعب في نفوس الجماهير حتى لا تتجاوب مع الأمير، وحتى تخذله في الوقت المناسب.

ثالثاً: تجنيد المتعلمين والمثقفين، لمراقبة الامير من جهة، وجمع

---

(١) انظر ـ قراءات (١) في نهاية هذا الكتاب.

المعلومات عن حالة البلاد بصورة دقيقة.

وانطلق (عبد الله ميسون) لتنفيذ مهمته، واتبع كل اساليب الغدر والنفاق في محاولاته لاستثارة عواطف الجزائريين، فكان يجتمع بالمثقفين بالأندية، ويحاضرهم، ومن بين ما كان يردده على أسماعهم: ان الجزائر لا يمكن ان تستغني عن فرنسا. وأن الأمير بما عرف عنه من يقظة الضمير، والتعمق في الدين لا بد له وان يتفق معها حتى يعيش الشعبان في رفاهية ورغد. وأن الامير سيدرك أن الحضارة الإفرنسية قد أثرت الإنسانية وأغنتها. وكم كانت دهشة (عبد الله ميسون) عندما تصدى له أحد حضور ندواته من المواطنين، ليقول له: «لقد أعلن الإفرنسيون بألسنتهم وأقلامهم تحرير الانسان، والغاء الرق، والمساواة أمام القانون، ثم راحوا يفرضون علينا رقاً آخر، من نوع أقسى وأمر، رقاً بغير قانون، وعبودية بقيود متطورة. إن ما تقوله الان وتتشدق به هو ظلم وبهتان. وإن ما يريد الجيش الافرنسي أن يفرضه من الرق اليوم على شعب الجزائر، انما هو أسوأ مما حاول أن يفرضه الدخلاء الذين جاءوا الى الجزائر بقصد التحكم في مصائرها. لئن سبق للدخلاء في الماضي السحيق استغلال حاجة الفقير الى لقمة العيش، ويستغلوا ضعفه واضطراب الخائنين من بطش الطغيان وجبروت الحديد والنار، وقسوة الحكم الغاشم، واتخذوا الفقر والجهل والخوف مرافق استغلال في نفوس الضعفاء، فان الوضع اليوم اصبح يختلف كل الاختلاف عما كانت عليه في الماضي. فبفضل سياسة (فرق تسد) التي جاء بها الدخيل، قد أصاب الشعب الجزائري عبء ثقيل من الرزايا أثر في بلده الأمين ووضع من قدره. ولكن لم يتمكن هؤلاء الاجانب من أن يقذفوا ببلائهم، ويرموا بسهامهم المسمومة، الا بعد افتراقنا وتدابرنا أما الان، فقد ظهر الحق من الباطل، ولا يأتي

لدو ميشيل أو من يعمل في ركابه من أن يلمح بسيف العدوان في وجوهنا». فسكت (عبد الله ميسون) واعتذر للحاضرين، وعرف أن مهمته ليست بالمهمة السهلة، لا سيما وقد أخذ الامير الذي كان يقابله ببشاشة في تتبع خطواته، وكلف عدداً من أبناء الجزائر بمراقبة كل تحركاته حتى لا يثير الشك في أذهان المواطنين. وبدأت العزلة تحيط به حتى وجد نفسه مرغمًا في النهاية على الكتابة للحكومة الإفرنسية معتذراً عن الاستمرار في تنفيذ مهمته، وشارحاً لها الموقف القوي للامير عبد القادر بقوله: «إن الامير على صلة متينة بتونس والمغرب وليبيا ومصر ومكة. وان امير مكة الذي يعتبر خليفة للمسلمين قد أعانه كثيراً، وهو يتلقى منه كل تأييد وتشجيع. ولهذا لن تتمكن فرنسا من السيطرة على الامير إلا إذا أوقفت هذه الاعانات المستمرة».

٣ـ معركة المقطع
(٢٦ حزيران - يونيو- ١٨٣٥ م)

لم يقبل كل المسؤولين الإستعماريين في فرنسا ـ والجزائر ـ بمعاهدة (عبد القادر ـ دو ميشال) ولا قبل بها كل المسؤولين من عرب الجزائر المسلمين، وكانت حوافز الرفض للمعاهدة متباينة لدى الطرفين، ومختلفة في كل طرف من الطرفين أيضاً، وكان لا بد للأمير عبد القادرمن خوض صراع مريرضد المناوئين والخصوم الذين ظهروا بغتة ليشكلوا جبهة واحدة ضد الأمير. وكان من أكثر ما أزعج الأمير وآلمه هو وقوف (بنو عامر) ضده وامتناعهم عن دفع الضرائب نظراً لتوقف الحرب ـ من وجهة نظرهم وقد كان هؤلاء هم أكثر اتباعه غيرة وحماسة، وبفضلهم أمكن له تحقيق معظم انتصاراته. وأمام هذا الموقف لجأ الأمير الى عدوه القديم وحليفه الحالي (مصطفى ود بن اسماعيل) وكلفه بإعداد قبائل (الدوائر والزمالة) في تلمسان لتأديب بني عامر واخضاعهم. واغتنم الزعيم (ابن اسماعيل) الذي كان على رأس (المخزن التركي) هذه الفرصة السانحة للانتقام من أعدائه القدامى وقاهريه، وفرح بما تضمنه له هذه الفرصة من غنائم وفيرة، بقدر فرحته في تدعيم هيبته على القبائل التابعة له نتيجة اعتماد الأمير عليه في تنفيذ مهمة من أخطر المهام. غير أن حدثاً تدخل بصورة طارئة

ليحول من مسيرة الأحداث، فبينما كان الأمير عبد القادر يلقي خطبة صلاة الجمعة كعادته في مسجد معسكر، وقع بصره على بعض شيوخ بني عامر، فتوجه إليهم على الفور بحديثه: «**وأنتم يا بنو عامر، ألستم أول من دعاني الى المركز الذي أتولاه الآن؟ ألستم أول من رجاني أن أقيم حكومة منتظمة توحي الى الأخيار بالثقة والى الأشرار بالخوف؟ ألم تتعهدوا بشرفكم بأن تضعوا حياتكم وأموالكم وكل ما هو عزيز ومقدس لديكم لدعمي ومساعدتي في مهمتي الشاقة؟ فهل ستكونون أول من يتخلى عن القضية المشتركة، وأول من يؤيد ويشجع، بإعطاء المثل، المؤتمرات ضد نفس الحكومة التي أقمتموها؟ كيف يمكن لأية حكومة الاضطلاع بواجبها بدون ضرائب، وكيف يمكن أن تبقى بدون اتحاد وتأييد الجميع؟ هل تظنون أن أصغر قطعة نقدية في الضريبة التي أطلبها ستستخدم في مصارفي الشخصية أو العائلية؟ إنكم جميعاً تعلمون ان أملاك والدي تكفي لحاجاتي الشخصية. إن ما أطلبه هو ما فرضه قانون الرسول ﷺ كمسلمين حقيقيين. وإنني أقسم بالله العظيم ان ما يدخل يدي سأحتفظ به كأمانة مقدسة من أجل انتصار الإسلام**».

تأثر شيوخ بني عامر لهذا النداء الصادر من القلب والذي يخاطب العقل. فتنادوا الى الاجتماع وجددوا بيعتهم وولاءهم، وتعهدوا بدفع الضرائب التي يطلبهـا الأمير. وأرسل الأمير عبد القادر على الفور رسولاً الى (مصطفى بن اسماعيل) يطلب إليه وقف مسيرته ضد بني عامر. ولكن ما أن مضت أيام ثلاثة حتى أقبل فارس يسابق الريح ليعلم الأمير بأن (مصطفى بن اسماعيل) قد بدأ هجومه على الرغم من الأمر الصادر اليه. وسرعان ما جمع (عبد القادر) قوة

من الفرسان وسار بهم حتى إذا ما اقترب من قوات (ابن اسماعيل) أرسل إليه طلباً بالانسحاب. وحين رفض هذا تنفيذ الطلب، هاجمه بفرسانه، ولما كان عددهم قليلاً، فقد تمكن (بن اسماعيل) من تمزيقهم حتى لم يبق مع الأمير الا قلة من الرجال الذين احاطوا به، وحاربوا معه حتى قتل معظمهم، ولم ينسحب الأمير الا بعد ان خاض معركته اليائسة بما يشبه المعجزة. فقد اخترق برنسه عدد كبير من الرصاص، وأصيب حصانه بجراحات كثيرة. وأمكن له في النهاية اختراق قوات العدو المحيطة به، والمرور من بينها كالسهم ليعود وحده الى (معسكر) في أعقاب الليل.

ما كادت أخبار هزيمة عبد القادر تنتشر، حتى استيقظت روح التمرد، فهذا (سيدي العريبي) يرفع لواء الثورة. وهذا الغماري وبنو نجاد يتبعونه ويستعدون للانضمام الى حاكم تلمسان (سيدي حمادي) الذي كان على صلة (بمصطفى بن اسماعيل). ولم تزعج هذه الأخبار الأمير أو تضعف من ارادته وها هو يجمع (١٥) ألف فارس من بني هاشم القرابة وبني مجاهر وبني عباس وبني عامر، ويتولى قيادتهم للمعركة، وانسحب ابن اسماعيل بقبائل الدوائر والزمالة الى مكان حملاتهم القديم قرب وهران، على أمل تلقي دعم الافرنسيين. غير أن هؤلاء خذلوه. وتقابل الأمير مع ابن اسماعيل في سهول (محرز) يوم ١٣ تموز - يوليو - ١٨٣٤ ودارت رحى معركة طاحنة لم تصل الى الحسم بقدر ما استنزفت قوات الطرفين ووجد الطرفان أن مصلحتهما تفرض عليهما (المصالحة) فتم الاتفاق على ذلك. ومضى عبد القادر حتى اخضع كل خصومه. وتخلص من أخطر خصمين له هما (سيدي العريبي) الذي مات في السجن و(الغماري - رئيس بني أنجاد) الذي

حوكم وحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم. عاد الأمير الى (معسكر) منتصراً. وأثناء ذلك استبدلت ادارة الجزائر الافرنسية، فتم تعيين (ديرلون) حاكمًا عاماً على الجزائر[1] خلفاً للجنرال (دي ميشيل) وكتب الأمير الى الحاكم الجديد مهنئاً، ومعلمًا اياه بنصوص معاهدته، فأظهر (ديرلون) استغرابه من هذه المعاهدة التي يجهل عنها كل شيء. كما أعلم الأمير بأنه ليس من حق (دي ميشيل) توقيع معاهدة تتجاوز حدود الولاية التي يحكمها (وهي وهران) وتضمن رده ايضاً ما يلي: «إن رأيي الخاص هو أن لا تجتاز الشلف الأسفل في اتجاه الشرق. فإذا حكمت الاقليم الذي هو الآن تحت يديك طبقاً للقوانين الإسلامية، وبعدل صارم، فسنكون أصدقاء ولكننا لن نسمح لك بدخول إقليم تيطري. فما يجري في هذا الاقليم هو من شأني. واني لست في حالة حرب مع سكانه. وليس لي حاضراً مشاريع لاقامة منشآت في البليدة أو بوفاريك. ولكن اذا رأيت ذلك في المستقبل من أجل مصلحة فرنسا، فاني لن أسمح لأحد باعتراض سبيلي».

كان ذلك يعني الغاء المعاهدة، وكان لا بد للأمير من التعويض عن ذلك بعمل عسكري فانصرف للقضاء على أعمال التمرد التي قادها (أولاد سيدي العريبي) في (وادي شلف) وما أن فرغ منها، حتى

---

(١) ديرلون: «DROUET D ERLON» ويعرف بجان بابتيست - JEAN BAPTISTE ماريشال فرنسا، ولد في ريمس (REIMS) عاش في الفترة (١٧٦٥ - ١٨٤٤) وظهرت عبقريته في معركة واترلو - وكان أول حاكم عام عين في الجزائر سنة ١٨٣٤، وقد تم ذلك بعد تبني وجهات نظر (اللجنة الافريقية) التي قررت ضم الجزائر نهائياً الى فرنسا. وكان الحكام الافرنسيون قبل ذلك يحملون لقب (قائد الحملة الافرنسية) أو قائد قوات الغزو.

التفت لقمع حركة (الحاج موسى بن حسن الملقب بأبي حمار) وهو من أشراف الصحراء، دخل المدية، ونشر فيها الطريقة الشاذلية، وأمكن له جمع القوى حوله. وكان لا بد للأمير من تجاهل تحذير (ديرلون) فاجتاز نهر الشلف وخاض معركة حاسمة انتصر فيها على (الحاج موسى)، واستولى الأمير على اقليم تيطري، وأعاد تنظيمه. وعندئذ وجد (ديرلون) أنه من الأفضل الالتزام بالسياسة الافرنسية التي كانت ترى في تلك الفترة ضرورة مهادنة الأمير الذي اعتقدت فيه وسيلتها للصعود الى أعالي الأطلس. فأرسل مسودة معاهدة جديدة للأمير عبد القادر الذي أرسل بدوره مسودة ضمنها شروطه. وكان ذلك ضد رغبة (تريزيل) الذي كان يريد التصدي للأمير ومجابهته بالقوة. وفي تلك الفترة عادت قبائل (الدوائر والزمالة) الى سابق عهدها في التعاون مع فرنسا وإمداد قوتها بمتطلباتها وتجاوزت ذلك عندما وقعت مع فرنسا معاهدة وضعت فيها نفسها تحت الحماية الافرنسية. الأمر الذي يعتبر تحدياً صارخاً للأمير الذي لم يقف صامتاً، فأرسل احتجاجاً جاء فيه:

«إن الدوائر والزمالة هم رعيتي، وبناء على قانوننا فإن لي الحق في أن أفعل بهم ما أشاء. فإذا سحبت منهم حمايتك وتركتهم يطيعوني كما كانوا، فذلك ما أريد. واذا كان موقفك عكس ذلك، فأصررت على التنكر لالتزاماتك، فاستدع في الحال قنصلك من مدينة ـ معسكر ـ لأنني لن أرفع يدي عن قبائل الدوائر والزمالة، حتى ولو دخلوا وراء حصون وهران، إلا بعد أن يندموا ويتوبوا وبالإضافة الى ذلك، فإن ديني يمنعني من السماح لمسلم أن يكون تحت سلطة مسيحي، فاختر ما يحلو لك، أو أن إله الحرب سيحكم بيننا». ولم يبق امام (تريزيل) حاكم وهران إلا الاستعداد للحرب. وكانت الاشتباكات قد بدأت بالفعل قبل ذلك بوقت قصير، إذ كان الأمير عبد القادر قد أرسل

بعض قواته لازعاج قبائل (الدوائر والزمالة) وأمكن أسر بعض شيوخهم والاستيلاء على مواشيهم. فأرسل حاكم وهران (تريزيل) قوة عسكرية لحماية مخيماتهم قرب (مسرغين) وفي ١٦ حزيران - يونيو- ١٨٣٥ م. وقعت الزمالة والدوائر معاهدة الحماية مع (تريزيل). ولم يلبث حاكم وهران هذا (تريزيل) أن أرسل قوة من الفرسان للإغارة على مزارع بني هاشم الغرابة بحجة الحصول ما تحتاجه القوات الإفرنسية من الشعير، وما ان علم الأمير عبد القادر بالعدوان على قبيلته الخاصة حتى أرسل (ألفي) فارس و (٨٠٠) راجل الى نهر (سيق). وقرر (تريزيل) مهاجمة هذه القوة قبل أن يتم دعمها بقوات أكبر. لذلك قاد يوم ٢٦ حزيران (يونيو) ١٨٣٥، تضم (٥) آلاف من جند المشاة، وفرقة من قناصي أفريقيا وأربع قطع مدفعية وعشرين عربة إمداد وتموين ومستشفى ميدان عـادي. ووصلت هذه القوة (غابة مولاي اسماعيل) وأخذت في اقتحام الغابة، وشرعت في اطلاق النار على ما ظنته كتيبة عربية ضالة (شاردة) ولكن النار أعيدت بعنف وقوة. وسرعان ما ظهر الفرسان لقد كانوا طلائع عبد القادر قادمين من جهة نهر السيق ولم تمـض اكثر من دقائق قليلة على هذا الاشتباك الأولي، حتى هوجمت القوات الافرنسية بهجمات عنيفة على جبهتها ومجنباتها، وكان ذلك مباغتاً الى حد مذهل للقوات الإفرنسية، وزاد من تأثير المفاجأة كثافة الغابة، وطبيعة الأرض المتموجة التي كانت تخفي العدد الحقيقي للمجاهدين المسلمين. هذا بالاضافة الى صيحات الحرب (الله أكبر) والتي كانت تثير فزع الجند الافرنسي، وتحمله على الاعتقاد بتقدير قوة المسلمين أضعاف ما كانوا عليه في الحقيقة. وأدى ذلك الى تمزيق التنظيم القتالي - نظام الصف - للقوات الافرنسية. التي حاولت

إجراء بعض التغييرات لإصلاح التشكيل القتالي، غير ان هذه المحاولات فشلت. وأثناء ذلك صدر الأمر الى الفرق الخلفية الإفرنسية بالتقارب لتشكيل سد، كما صدر أمر مماثل الى الوسط للتلاحم، مع إبعاد قوة الفرسان. وفي وقت قصير، دبت الفوضى في كامل الجيش الإفرنسي. فدخل الفرسان في الميدان، ولم يكن المشاة والمدفعية قادرين سوى على إطلاق النار بدون هدف. وبعد فترة قصيرة بدأت حدة الهجوم العربي في التباطؤ، وأخذ الافرنسيون في المرور عبر صفوفهم، وكانت عربات المؤونة قد احتجزت وأفرغت، كما حطمت براميل الخمر. وكان الجميع يأكلون ويشربون بشراهة. وبذل الضباط الافرنسيون جهوداً جبارة في محاولة للسيطرة على الموقف، وأمكن لهم في الواقع استئناف التحرك نحو الأمام، ووصل الجيش الافرنسي عند الغروب الى (نهر سيق) وهناك نصبوا معسكرهم في مربع ثابت. ولحسن حظ الافرنسيين كان جيش عبد القادر الرئيسي، الذي انطلق في تقدمه السريع من (تلمسان) قد اضطر للتوقف خلال فترة قصيرة على بعد فرسخين من ذلك النهر، لذلك استطاع الافرنسيون الحصول على بعض الراحة في الليل. وعند الفجر، بدأ (تريزيل) بالانسحاب ولكن الأمير عبد القادر كان يتحرك بسرعة أكبر، فقد عمل خلال الليل على قيادة بعض قواته، ووضعها على محاور الاتصال مع وهران. ولم يكن باستطاعة (تريزيل) تجديد الاشتباك مع قوات الأمير،لذلك قرر السير الى مدينة (أرزيو) عن طريق الساحل. ولكنه كان يعرف مدى الصعوبات التي تجابهه اذا ما تحرك مباشرة في ذلك الاتجاه (حيث كانت هناك اجزاء من الأرض غير صالحة لسير العربات أو حاملات المدافع) فقرر أن يتحول الى (جبال حميان) وأن يظهر على سهل أرزيو عن طريق مضيق نهر الهبرة، حيث

يغير نهر الهبرة اسمه ليحمل اسم (نهر المقطع). وحين رأى الأمير عبد القادر حركة القوات الافرنسية، عرف هدفها على الفور، فإذا استطاع أن يستولي على مضيق نهر الهبرة، قبل أن يصلوا إليه فانه يعلم أنهم سيكونون تحت رحمته. ولكن المسافة كانت بعيدة جداً على المشاة لتحقيق ذلك الهدف خلال الفترة الزمنية المتوافرة له. فاختار (عبد القادر) ألف فارس، وأمر كل راكب أن يردف معه جندياً من المشاة، وأن يسرعوا الى المكان المعين. وأمكن تحقيق العملية بنجاح كامل. فالفرنسيون، بعد أن عانوا مشقة كبرى، استطاعوا عبور سهل سيراط، وبعد مطاردة الفرسان العرب لهم طوال الطريق، دخلوا مضيق (الهبرة) حوالي منتصف النهار. وقد ذهلوا عندما وجدوا منحدري المضيق مدججين بالسلاح. وحين تقدموا رميت عليهم قطع كبيرة من الصخور وبينما كان الجند الإفرنسيون مشغولين بالمناوشات خلال ساعتين، أمكن لهم فتح الطريق ببطء وبتضحيات كبيرة. وأثناء ذلك، كان عبد القادر وجيشه كله قد سد عليهم الطريق من الخلف. وقد خشيت مؤخرة الافرنسيين من عزلها عن بقية الجيش. فاندفعت الى الامام وهي في حالة من الفوضى المريعة، فقد تحول جزء من مستشفى الميدان والمدفعية الى اليمين وغرق في المستنقع. أما رجال المدفعية فقد فصلوا المدافع عن حاملاتها، وهربوا. واختلطت القوات بعضها ببعض، وأسرعت الكتائب أو أجزاء منها، هنا وهناك، باحثة عن مخبأ أو مفر. وأفسح لهم العرب مجال المرور من بينهم، لمعرفتهم إنهم لن يذهبوا بعيداً. وجرف التيار كل الجنود الذين حاولوا الفرار سباحة، وغرقوا في مياه النهر. ثم حل الليل، وسارت فلول القوات الممزقة نحو مدينة (أرزيو) وهي تحمل كل مرارة الفشل.

انطلقت قوات المجاهدين طوال الليل للبحث عن فلول

القوات، وكانت صيحات البهجة وأصوات التهليل والتكبير تمزق سكون الليل في حين كانت المشاعل تضيء ظلمته. وكانت كومة رؤوس جنود الأعداء تتحول تدريجياً لتأخذ شكل تل كبير، أما المهندسون فكانوا يعملون على ضوء المشاعل لإصلاح الممرات والطرق. وتوجه الأمير مع منتصف الليل الى المضيق، فصدمه مشهد (تل جماجم الجند الافرنسيين) وصيحات جنوده وهم يرددون (مزيداً من الرؤوس) ووقف لحظة في صمته المهيب، لقد أرهقته متاعب الأيام الماضية، غير أن صوتاً داخلياً كان يحفزه للمزيد من العمل، فلوى رأس حصانه الأسود. ومضى في ظلمة الليل.

اهتزت فرنسا كلها عندما وصلتها أخبار (معركة المقطع). وارتفعت صيحات (التحقيق والعقوبة والانتقام) في جوقة واحدة. وهكذا استدعي (ديرلون) وحل الجنرال (دارلانج) محل تريزيل. كما عين (كلوزول) من جديد ليفتتح عهداً جديداً فيها كان يسمى عندئذ (المستعمرة الافريقية لفرنسا). وفي جلسة من جلسات البرلمان الافرنسي، في سنة ١٨٣٥، وقف النائب (تيير)[1] لينتقد بقوة النظام الافرنسي الذي كان مطبقاً في الجزائر، وليطالب بدعمه وتطويره حيث قال: «**إنه ليس استعماراً، انه ليس احتلالاً على مدى واسع، وليس**

---

(١) تيير: (ADOLPHE THIERS) رجل دولة ومؤرخ فرنسي، من مواليد مرسيليا (١٧٩٧ - ١٨٧٧) بدأ حياته محامياً في ايكس (١٨١٩) ثم قدم الى باريس ليعمل في الصحافة، وأسس جريدة (الاناسيونال) سنة ١٨٣٠، واشترك في اقامة ملكية تموز - يوليو - ١٨٣٠، وأصبح وزيراً سنة ١٨٣٢، ثم رئيساً للوزراء سنة ١٨٣٦ - ١٨٤٠، ورئيساً لحزب النظام في مجلس سنة ١٨٤٨، واعتقل سنة ١٨٥١، ثم أطلق سراحه سنة ١٨٥٢، وانتخب نائباً مرتين (١٨٦٣ و١٨٦٩) وأصبح رئيساً للجمهورية بعد سنة (١٨٧١) على أثر سقوط نابليون الثالث. واشتهر بأنه ملكي محافظ.

احتلالاً على مدى ضيق، انه ليس سلاماً، وليس حرباً ولكنه حرب سيئة الادارة». وتحركت الحكومة الافرنسية للعمل بقوة، فزادت من عدد الجيش في الجزائر. وأمرت بإدارة قوية للحرب مع عبد القادر، وأصدرت قراراً باحتلال مدينة (معسكر). وكان الاعتقاد السائد هو أن الاستيلاء على عاصمته سيجبر السلطان على الاستسلام. ووصل (كلوزول) الى مدينة الجزائر يوم ١٠ آب - اغسطس - ١٨٣٥ م. وقام باستعراض الجيش، وحاول رفع روحه المعنوية المتدهورة، فخطب في جنوده قائلاً: «لقد عزمنا على الانتقام من الأمير، لأنه انتصر على تريزيل في المقطع، وكبده من الخسائر مالا يعلمه إلا الله، ولن نرتاح حتى نكيل له خسائر فادحة، ونقصيه عن دار ملكه - معسكر - وبذلك يدرك الجزائريون أن وضع الأمير مزعزع، وان امكاناته قد انهارت» وصفق الحاضرون وقد أخذتهم الحماسة، وباتوا ينتظرون ترجمة هذه الوعود الى حقيقة.

٤ ـ الانتقام الافرنسي واحتلال (معسكر)
(٦ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٣٥)

مضى (كلوزيل) في الإعداد لغزوته الكبرى، ووضع خارطة تظهر المستعمرة (الجزائر) وقد قسمت إلى عدد من المناطق (البايليكات) مع وضع أسماء البايات المحليين المعينين لحكمها. ولم يكن الأمير عبد القادر غافلاً عما يعمل له (كلوزول ـ أو كلوزيل). فقد كانت عيونه (جواسيسه) تعمل بنشاط لتنقل له الأخبار فوراً وبصورة دقيقة، وعندما علم بما يعتزم خصمه (قائد وهران كلوزول) تنفيذه، صمم على أخذ المبادأة، واستنفر القبائل، ودفعها نحو العاصمة (الجزائر) تحت قيادة خليفته (في مليانة). وقد أفاد هذا الخليفة من الدعم الذي وصله (وهو خمسة الاف مقاتل) فانطلق من قاعدته (مليانة) واجتاح سهل (متوجة أو متيجه) فهزم القبائل المتنصرة، وقتل منهم أعداداً كبيرة وأسر منهم اعداداً أكبر. ومضى في تقدمه حتى وصل أبواب (الجزائر). وعندما كثرت المغانم، وتزايدت أعداد الأسرى، أوعز خليفة الأمير في مليانة إلى نائبه باصطحاب فئة من الجند لحراسة المؤن والأسرى وتسليمها لإرادة الأمير. وفي الوقت الذي كان خليفة (مليانة) يحقق انتصاراته الرائعة على القبائل المتنصرة وعلى الحاميات الإفرنسية، كان خليفة الأمير (بتلمسان) يقاوم

الإفرنسيين وينتصر عليهم في ولاية ـ ايالة ـ (وهران) وأخيراً تمكن هذا الخليفة من محاصرة وهران، وعزلها، والسيطرة على طرق مواصلاتها، وفصل القيادة الإفرنسية بوهران عن القبائل المتنصرة، وقد كانت المعارك التي خاضهـا أمير تلمسان (خليفة الأمير عبد القادر) ضد قائد وهران (كلوزول) قوية الى درجة وصفها أحد المؤرخين بقوله: «**لقد نفذ البوحميدي جميع ما طلب الأمير تنفيذه، وصار الإفرنسيون داخل وهران في أشد الضيق، إلا أنهم أحسن حالاً من أسرى الحرب. وكاد الأمير يحقق وعيده بأن لا يسمح للطير أن يحلق من غير إذنه فوق المدن التي استولى عليها الافرنسيون الذين أصبحوا مشلولين تماماً، يطلبون الخلاص من قيودهم، ويجدون صعوبة في تنفس الهواء، وتتفتت أكبادهم غيظاً. وأقاموا يترقبون وصول الدعم مع أوامر الهجوم ليندفعوا على ذلك الأمير الذي رماهم بسهام ذكائه المدهش**».

ذهب (كلوزول) إلى وهران يوم ٢١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٣٥ لإنهاء استعداداته، وحدد واجب العمليات بقوله: «إن أول ما نبدأ به هو الزحف بجيوشنا على عاصمة الأمير، فإذا ما ساعدنا الوقت في الاستيلاء عليها، فسنثأر لأنفسنا من العرب، ثم نعقد مع الأمير صلحاً لكل نزاع». وحشد (كلوزول) لمعركته جيشاً من (١٢) ألف مقاتل؛ في حين كانت قوات الأمير تضم (٨) آلاف فارس، و(ألفي) جندي من المشاة (الراجلين)، بالإضافة الى (٤) مدافع. وغادر (كلوزول) وهران يوم ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) للاستيلاء على (معسكر). ونظراً لأن هذه المدينة لم تكن مجهزة للدفاع. كما أن قوات الأمير منظمة على أساس حرب الحركة وليس على أساس واجبات الحصار، بالاضافة إلى أن استراتيجية الامير كانت قائمة على أساس

تجنب الصدام مع قوات متفوقة في معارك جبهية فقد أصدر الأمير عبد القادر أوامره الى سكان معسكر بالخروج منها.

اجتاز (كلوزول) بقواته غابة (مولاي اسماعيل) وخاض نهر (سيق) دونما مقاومة تذكر. ولكن عندما اقترب الجيش الافرنسي من نهر (هبرة) ظهر له العرب وهم يتحركون في اتجاه متواز مع خط تحركه، وعلى امتداد المرتفعات المجاورة. كان الأمير عبد القادر يراقب تحرك اعدائه وينتظر الفرصة المناسبة التي يقع فيها خلل في الصفوف الأمامية الافرنسية ليعطيه نقطة ضعف صالحة للهجوم. غير أن (كلوزول) شعر بنوايا الأمير، فتوقف لفترة ريثما أعاد تنظيم صفوفه فسدّ الثغرات وتحصن بالأرض، ثم أطلق قواته في وحدات صغرى للإغارة على العرب. ولكن عبد القادر رفض الدخول في المعركة. فقد ترك خصمه يتمتع بالثمار الضحلة لتغيير خط هجومه، واندفع هو بسرعة لوضع نفسه على محور التقدم الرئيسي الذي يقود الى مدينة (معسكر)، ونشر جناحه الأيسر على مرتفع اختار فيه المرابض المناسبة لمدافعه، أما يمينه فكان محمياً بصورة طبيعية، وكان اختياره لهذا الموقع مناسباً جداً من وجهة النظر (الجيواستراتيجية). ودفع بعد ذلك طلائع قواته للاستيلاء على أربعة أماكن للعبادة موقوفة على (سيدي مبارك). ولكن الافرنسيين أمكن لهم معاودة الاستيلاء عليها بعد قتال مرير. وأطلق الفرسان العرب نيرانهم في جهات مختلفة، غير أن قنابل الافرنسيين وقذائفهم استطاعت تدمير المقاومات العربية. وتولى الأمير عبد القادر توجيه نيران مدافعه بنفسه، واستطاعت بعض القذائف الموجهة بدقة إحداث الفوضى في إحدى الكتائب الإفرنسية فقاد الأمير على الفور مشاته ضدها. واندفعت القوات العربية بحماسة للاشتباك

مع العدو. غير أن كثافة نيران المشاة الافرنسيين تمكنت من إيقافهم وتكبيدهم خسائر فادحة. واستمر الصراع بقسوة، ولكن ظهر بسرعة أن الهجوم بات عقيمًا بعد أن تمزقت القوات العربية، فاضطرت للانسحاب. ومضت ساعات على هذا الصراع المرير، الذي انتهى باستيلاء الإفرنسيين على غابة (بغيلة) الواقعة على يمين المواقع العربية. بينما تقدمت مدفعيتهم إلى الامام على محور الطريق الرئيسي. وتخلى العرب عن جميع النقاط في ميدان المعركة. وحاول الأمير عبد القادر المحافظة على بعض النظام أثناء تنفيذ الانسحاب. غير ان جهوده لم تفلح في إصلاح الخلل. وخلال نفس الليلة، انحلت فرق مشاته النظامية، أما فرسان القبائل، فإن بعضهم عاد الى منازله، في حين توجه بعضهم الآخر الى مدينة معسكر، ليمارس فيها أعمال النهب قبل أن ينهبها الافرنسيون. وأما الأمير عبد القادر نفسه، فقد انسحب الى (كاشرو ـ أو قرية كاشن) التي كانت ملكاً لأسرته، وهي تبعد حوالي فرسخين عن معسكر.

لقد ذاب جيش الأمير عبد القادر كما تذوب قطعة الثلج تحت وهج حرارة حارقة. وظهر بوضوح أن الطريق الى (معسكر) قد بات مفتوحاً. وقد تسقط (تلمسان) في أيديهم بعد فترة قصيرة. ومن الممكن بنتيجة ذلك ان تستسلم القبائل بأجمعها طلباً للأمن، بل ان بعض الرؤساء الذين كان عبد القادر يعتمد عليهم أكثر من غيرهم قد تخلوا عنه. وهكذا كانت حالته تبدو يائسة. لقد كان يشعر بالألم والضيق. وكان الغضب يتملكه بنتيجة الاهانة التي لحقت بسمعته ونتيجة ضعف بعض أنصاره وخيانة بعضهم الآخر. غير انه بالرغم من ذلك استطاع كبح جماح عواطفه فالتزم الصمت، ولم ينبس ببنت

شفة. ولقد حاول بعض الذين بقوا مع عبد القادر معرفة نواياه وسبر أغوار نفسه. فأظهر لهم التجلد، وحاول التخفيف عن المنزعجين، ورفع الروح المعنوية للمنهارين. وعندما تقدمت منه أمه بحنان الأمومة وعطفها لتبث في أذنه همسات الصبر والعزاء، أجابها بهدوء وهو يمسك يدها بكلتي يديه: «إن النساء يا أماه هن الَحريَّات بالشفقة، وليس الرجال».

دخل (كلوزول) مدينة معسكر يوم ٦ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٣٥، ولم يبق بها سوى نفر من اليهود. لقد خرجوا من كهوفهم ليركعوا عند أقدام المنتصرين الافرنسيين واشمأز المسلمون من السماح لهم بمصاحبتهم عند رحيلهم من المدينة. وفي اليوم التالي، اشتعلت النيران في أجزاء مختلفة من المدينة، ولكنها سرعان ما أخمدت. وبدأت القوات الافرنسية بالاستراحة من الجهد المبذول، والاستعداد للاقامة في المدينة. فكان ذهولهم كبيراً عندما صدرت الأوامر إليهم بالاستعداد للرحيل، وهكذا جلوا عن مدينة معسكر في الثامن من الشهر. ورجع كلوزول الى وهران تاركاً بها القبائل المتنصرة التي أرادت أن تنتقم من الأمير.

قرر الأمير عبد القادر العودة إلى دار الامارة في (معسكر) ولما يمض على احتلالها أكثر من ثلاثة أيام. وانتشرت أخبار حضوره بسرعة. فجاءت القبائل تعتذر عن تفريطها. وعملت القبائل التي استولت على الذخائر بردها إلى الأمير طالبة منه العفو، فلم ير بداً من العفو عنها وتجاوز أخطائها. وكان (الهواري ـ آغا بني هاشم) بين هؤلاء، وهو الذي كان قد نهب مظلة السلطان أثناء الحرب فجاء بها الآن فقال له عبد القادر في ابتسامة ساخرة؛ (احتفظ بها لنفسك،

فلعلك تصبح سلطاناً في يوم من الأيام). وعندما تقدم النهار، جاء بعض الرؤساء الذين كانوا قد فروا. فنظر إليهم عبد القادر باحتقار- واخيراً تشجع أحدهم، وسأله، ما إذا كان عنده أوامر جديدة لهم فتعجب قائلاً: «أوامري! نعم، ان أوامري هي أن تعفوني في الحال من ذلك العبء الذي ألقيتم به على عاتقي، والذي ساعدني ديني وإيماني على حمله حتى هذه الساعة. دعوا القبائل تختار خلفاً لي وتعلم الحاج الجيلالي بالنتيجة، أما أنا فإنني ذاهب مع عائلتي الى المغرب الأقصى». وفي حركة واحدة جثموا، رؤساء واتباع، امامه والتمسوا منه برجاء حار العفو عن الماضي. ووعدوه باخلاص على متابعة الجهاد معه، وتقديم الدعم له. وأشرق وجه الأمير بنور اضاء أعماق نفسه وقال لهم: «فليفعل الله ما يشاء! ولكن تذكروا انني أقسم ان لا أدخل مدينة معسكر باستثناء الجامع - حتى تثأروا لهزيمتكم النكراء. لقد كان الأحرى بكم أن تواظبوا على الجهاد حتى تنقذوا بلادكم من براثن العدو وتعيشوا أحراراً، أو تموتوا عن آخركم فتحرزوا الشهادة» واستعاد الأمير سلطته، فأرسل في الليلة ذاتها مجموعة من الرسل الى كافة القبائل تدعوهم إلى الجهاد مجدداً. وفي الغد، انبرى عبد القادر على رأس قوة من (٦) آلاف فارس. وهدفه الوصول الى (تلمسان) لحمايتها ومنع الافرنسيين من الوصول اليها، غير انه كان لا بد له في الوقت ذاته من خوض مجموعة من المعارك ضد تلك القوى التي ارتضت لنفسها الاستظلال بحماية الافرنسيين والخضوع لحمايتهم.

٥- الصراع المرير على تلمسان

(١٨٣٦)

كبرت الهزيمة على (كلوزول) إذ رأى أن هجومه على (معسكر) ما زاد الأمير إلا قوة وعناداً. ففكر في وسيلة تخرجه من المأزق الذي يجابهه، فكلف (بوشناق) الذي أصبح قائداً لفرنسا على (مستغانم) بالتوجه إلى دار الامارة (بمعسكر) ليشاغل الأمير. وخرج هذا العميل الى المكان الذي يعرف باسم (البطحة) ووقعت بينه وبين جيوش المسلمين وقائع عديدة. ولو لم يتنبه (بوشناق) في الوقت المناسب إلى فتح أفواه نهر (هبرة) لفصل قواته عن جيوش المسلمين، لكانت هذه الجيوش قد دمرت قواته تدميراً كاملاً. وعادت هذه القوات بفلول ممزقة لتضيف الى هزيمة (كلوزول) هزيمة جديدة. وتابع الأمير عبد القادر بعد ذلك تقدمه للالتقاء مع عدوه (كلوزول) وكان أول ما قام به الأمير هو الهجوم على (قوة المزمالة) التي باتت متحالفة مع الافرنسيين، فقتل قائد هذه القوة، وتمزق أفرادها، ولم ينج من الابادة إلا الذين فروا في الشعاب تاركين أموالهم وراءهم بحيث أن الأمير كلف فرقة كاملة من جنده لحمل الغنائم وتسليمها الى دار الإمارة. وبينما هو سائر الى تلمسان بلغه أن قبيلة (أنجاد، أو أنكاد) تحاول ارسال دعم الى مصطفى بن اسماعيل قرب تلمسان، وفي الوقت ذاته، خرج هذا

المتمرد (ابن اسماعيل) من تلمسان ومعه أنصاره للقاء الأمير. غير انهم لم يصمدوا لضربات للأمير، الذي أمكن له من أن ينتصر أولاً على (مصطفى بن اسماعيل) الذي تمزقت قواته، ورجعت بفلولها الى تلمسان تاركة فوق أرض المعركة مئات القتلى وآلاف الجرحى. أما قبيلة (أنجاد) فلم تتمكن من مجابهة الأمير، بل فرت منذ بداية النهار، تاركة وراءها كل ما تملك حتى انها سلمت في حريمها وأولادها، وجرح قائد قبيلة أنجاد المعروف باسم (عبد الله غماري).

تبين للجنرال (كلوزول) ان كل آماله قد تدهورت، غير أنه حاول التكتم على هزائمه فأرسل تقريراً الى حكومته «**أشاد فيه ببطولة جيشه التي حققت له النصر على الأمير، والاستيلاء على دار الامارة بعد معارك طويلة» إلا أن الحكومة تلقت تقارير مناقضة من عناصر استخباراتها تفيد: «بأن القوات الافرنسية قد دخلت دار الامارة، دون أن يكون الأمير فيها، أو يجدوا من يقاومهم، وفي اعتقادهم أن عدم مجابهة الأمير للافرنسيين كانت خطة عسكرية والدليل على ذلك، أن الأمير اتخذ من استيلاء الافرنسيين على معسكر حجة للفتك بالقوات الافرنسية وتدمير القبائل المؤيدة لها- وعلى كل حال، فإن كلوزول ليس بالرجل الذي يمكن له أن يكون كفوءاً للأمير، وان ما يرسمه كلوزول من الخطط لم ولن يجدي نفعاً**».

وكتبت وزارة الدفاع الافرنسية الى كلوزول رسالة جاء فيها: «**بان هناك شائعات تقول بخلاف ما تدعيه أنت في تقاريرك، وعليك أن تكون صريحاً مع وزارة الدفاع حتى تتمكن من معالجة المشكلات بحسب ما تقتضيه المصلحة العامة في الجزائر**». وأمام هذا الموقف، أعاد (كلوزول) تقدير موقفه، فوجد نفسه أمام مأزق لا يخرجه منه الا استيلاؤه على تلمسان، فنظم قوة من (٨) آلاف جندي، وتوجه بها

الى هدفه وبلغ الأمير ذلك، فاتخذ نفس الخطة التي نفذها في (معسكر) وأمر السكان بمغادرة المدينة. وجاء الافرنسيون، وعندما علم (مصطفى بن اسماعيل) باقترابهم خرج هو وأنصاره، وفتحوا لهم أبواب القلعة، ولم يدخل الافرنسيون إلا بعد دفاع مستميت، حيث وقف جند الأمير سداً في وجوههم. ولما لم تسفر المعركة عن نتيجة، توقفت قوات (كلوزول) غير أن القبائل التي خرجت من تلمسان استجابة لأمر الأمير، عادت الأن فانضمت الى الافرنسيين. ولم يبق امام الأمير إلا الانسحاب بقواته الى مدينة وجدة (على الحدود المغربية) ودخل كلوزول تلمسان يوم ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٣٦ م. وقد تقدم ابن اسماعيل والكراغلة، متبوعين بجميع اليهود لاستقبال الحاكم العام، ومجلس قيادته، رافعين إليه أسمى آيات الولاء والاستسلام، داعين اياه (بمنقذهم، وولي أمرهم). أما كلوزول، فقد طلب منهم (١٠٠) ألف فرنك كعربون على اخلاصهم. وحاول أولئك المنخدعون المندهشون أن يقنعوه بعجزهم عن جمع مثل هذا المبلغ، ولكن بدون جدوى، لأن كلوزول كان لا يرحم، واستخدم الضغط الشديد والتهديد بل وحتى الضرب، وادى ذلك الى أن يبيع الرجل لباسه وفراشه حتى يؤدي ما افترض عليه، وان تبيع المرأة ثيابها ومصوغها حتى تجمع المبلغ، جزء منه نقدا والجزء الأخر من الماس والجواهر وقد أدى ذلك الى ظهور نقمة عارمة، مما أدى الى انتشار مقولات مختلفة على الألسنة منها المقولة الساخرة التالية: **«ما أعظم قادتنا، انهم يطالبون القبائل الجزائرية بالانضمام اليهم، حتى اذا ما استجابت هذه القبائل لهم، فرضوا عليها الغرامات القاسية لتمويل خزينتهم»** أما الأمير عبد القادر فقال: **«إذا كانت تلك هي معاملة الافرنسيين لأصدقائهم، فماذا عسى أن يتوقع منهم أعداؤهم»**.

وشاع خارج المدينة، وذاع، أن يهودياً قد ترأس محكمة حاكمت (الكراغلة المسلمين) وعاقبتهم، فزادت نقمة العرب بذلك، ان هذا الانتهاك لحرمات المسلمين لم يسمع به أبداً من قبل. وكان من نتيجته ان عاد (الأنجاد) للاتصال بالامير عبد القادر. كما أرسل اليه (الكراغلة) بصورة سرية من يعلمه بأنهم ينتظرون بفارغ الصبر رحيل الإفرنسيين لتسليمه القلعة. غير أن (كلوزول) لم يكن يرغب بالرحيل عن المدينة، وكان هدفه هو اقامة اتصال مباشر بين تلمسان، والساحل. وكان فم (تافنة) هو اقرب نقطة صالحة لهذا الغرض. غير ان المسافة الواقعة في الوسط هي منطقة جبلية. وقرر ان يحقق هدفه يوم ٢٣ كانون الثاني ـ يناير ـ فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام عبد القادر الذي كان يقود جيشه. وبدأت على الفور المعركة التي استمرت عشرة أيام أظهر فيها العرب شوقهم للموت انتقاماً لهزيمتهم السابقة، وقاتلوا بعناد وتصميم لا يمكن وصفهما. وكان الامير عبد القادر طوال هذه الاشتباكات يتجنب الدخول في معركة تصادمية ـ جبهية ـ مع قوات الافرنسيين، مكتفياً بالسيطرة على النقاط ذات الاهمية الاستراتيجية. فنشر قواته على الهضاب وفي الوهاد وعند الانهار. واصطدمت القوات الافرنسية بعقبتين: اولاهما عدم قدرتها على مجابهة هذا النوع من اساليب (الحروب الثوروية) وثانيتهما: عدم معرفتها للأرض على مسرح العمليات. ونتج عن ذلك ان انهزم كلوزول، وتقهقر الى تلمسان، مخلفاً وراءه خسائر فادحة. ثم لم يلبث أن ترك حامية في قلعة تلمسان بقيادة نائبه (كافينياك) ومضى في رحلة مثيرة في اتجاه (وهران) حيث كانت قوات الامير عبد القادر تطارده حتى ابوابها، وقد وصفت المصادر الافرنسية هذه الرحلة المثيرة بما يلي:

«خرج الماريشال كلوزول بجنوده من تلمسان، راجعاً الى وهران،

فصادف في طريقه أهوالاً جمة، وتعرض لمصائب شديدة، منها هزائم جنده، وتشتيت شملهم بوادي عشبة» «وقد عدل كلوزول عن طريقه الذي جاء منه، وسلك طريق الساحل الى مرسى (رشقون) فوصله على أسوأ حال، ذلك أن الأمير أخذ بمخنقه وحاصره مدة شهرين كاملين، لا يخلو يوم منها دون قتال، ثم لما أعياه الأمر، وضاقت به الحيلة، بعث صريخه الى نائبه في وهران، الذي أرسل اليه المراكب، فركبها بجيوشه، وحمل ما أمكنه من ذخائر ولحق بوهران». وفي وهران، توقف كلوزول فترة قصيرة، عين فيها الجنرال (دارلنج) قائداً على وهران، والجنرال (بهاراجوا) على الجند ومضى هو الى الجزائر. وعندما وصلها، حاول التستر من جديد على (مغامراته الفاشلة)، فاصدر بياناً اعلن فيه «ان الحرب ستنتهي، وأن عبد القادر قد ضرب ضربات قاضية، وانه دحر، وانه فر الى الصحراء». ثم سافر الماريشال كلوزول الى فرنسا في شهر (نيسان - ابريل) تاركاً وراءه تعليمات الى (دارلنج) في وهران، باقامة معسكر حصين على نهر (تافنة) استعداداً لفتح خط الاتصال مع تلمسان من هناك.

خلال هذه الفترة تسرب (كافينياك)[1] الى (بريغو)[2] حيث القبائل النازلة في وادي الشلف. والمعروف ان هذه القبائل قد

---

(١) كافينياك: (LOUIS EUGENE CAVAIGNAC) الابن الثاني (لجان بابتيست كافينياك) وهو- اي لويس- من مواليد باريس (١٨٠٢ - ١٨٥٧)، خدم في الجزائر، ثم أصبح حاكماً لها، وعين رئيساً للهيئة التنفيذيه سنه ١٨٤٨، فقضى على ثورة حزيران. غير انه فشل في فرض مرشحيه لرئاسة الجمهوريه ضد لويس نابليون.

(٢) بريغو: (PERREGAUX) هي مقاطعة في اقليم وهران. في وادي نهر (هبرة) وتقع عند تقاطع الخطوط الحديدية (الجزائر - وهران) مع تلك الواصلة بين (وهران وكولومب بيشار)

استمرت بتأثير من رؤسائها أبناء (سيدي العريبي) في التأرجح بين الولاء للامير عبد القادر، وبين العمل ضده، وذلك على الرغم من العقوبات التي نزلت بها، وها هي الان تمتنع عن دفع الضرائب، بعد ان رفضت تقديم فرسانها لدعم جيش الامير، ثم هي تجاوزت ذلك في حلف جديد مع الإفرنسيين بحجة تعرضها لضغط القوات الإفرنسية المستمر.

وكان الأمير عبد القادر مشغولاً جداً في الوقت الحاضر بحصار تلمسان، وباجراءات (دار لانج) على (تافنة) وليس بامكانه التوجه الى (بريغو). غير ان العرب الذين نكثوا بعهدهم، ورحبوا بالجنرال الافرنسي، سرعان ما شعروا بغضب السلطان، اذ لم يكد الافرنسيون ينسحبون حتى نزل عليهم عبد القادر كالصاعقة. ففرض الضرائب الثقيلة على ثمانية عشر قبيلة منهم، واقتيدت مواشيهم، وقد اخذت قبيلة (البرجية) كمثال مريع، فهلك منها عدد كبير، وشرد الباقي ليجد المأوى حيث يستطيع. ووصل (دار لانج) بصعوبة كبيرة الى (تافنة) يوم ١٦ نيسان - أبريل - ١٨٣٦ م ومعه (٣) آلاف جندي من المشاة وثماني قطع مدفعية. وبعد ان اكمل إقامة المعسكر الحصين على ضفة النهر، تقدم في ٢١ من الشهر لفتح الطريق الى تلمسان تنفيذاً لتعليمات (كلوزول). وعلم الأمير بالأمر فسار الى (ندرومة) حيث يمكنه متابعة تحركات العدو من كل جهة في المكان الذي تتشعب منه الطريق من (تافنة) الى تلمسان. فقطع جبال القبائل الممتدة حول تافنة، ومضى محرضاً القبائل على الجهاد، ثم توجه بجيشه، واعترض العدو في وادي (تافنة) والتحم القتال بينهما نهاراً كاملاً. ثم ضرب الجنرال معسكره في الوادي ورتب صفوفه على هيئة قلعة، ونزل الأمير بجنوده وضرب حصاراً محكماً حوله. وفي يوم ٢٤ نيسان (ابريل) تهيأ

الجنرال للانتقال من مكانه، فجاءه المجاهدون من كل مكان وزحفوا اليه دفعة واحدة، غير مبالين بنيران المشاة أو قذائف المدفعية حتى وصلوا الى مرابض المدافع واستولوا عليها. واخذ الجنرال بالانسحاب، واستمرت قوات المجاهدين في مطاردته حتى اعجزته عن التحرك فقرر التوقف من جديد، وأعاد تنظيم معسكره الدفاعي. وعندما قرر استئناف المسير، انقض عليه جند الأمير، واستولوا على عتاده، وقتلوا من جنده أعداداً كبيرة. ثم توجه الجنرال الى (تافنة) يجر معه فلوله الممزقة، فاعاد تنظيمهم، غير أن قوات المجاهدين لم تترك له فرصة للراحة، وعادت فاحكمت الحصار حوله، ومنعته من التحرك، ولم يبق أمامه الا ان يشق طريقه بين صفوف المسلمين، حيث تعرضت بقية قواته للمزيد من التدمير، وعندما وصل الى (وهران) ارسل الى حكومته يعلمها بما نزل بقواته من الخسائر، ويطلب اليها الدعم لايقاف الموقف المتدهور.

تابعت الحكومة الافرنسية ارسال الامدادات لقواتها في الجزائر، بعد ان أجمعت كافة التقارير على تصعيد المقاومة بصورة لم تكن متوقعة. ووصل الجنرال(بيجو)[1] على راس ثلاثة فرق عسكرية الى (تافنة) يوم ٦ حزيران - يونيو - ١٨٣٦، وفي الحال شرع الافرنسيون في تجديد محاولتهم لفتح الطريق الى (تلمسان) بالقوة،

---

(١) بيجو: (THOMAS- ROBERT- BUGEAUD DE LA PICONNERIE-) دوق ايسلي DUC D'ISLY، ماريشال افرنسي، من مواليد ليموج (١٧٨٤ - ١٨٤٩) اسهم بقدر كبير في دعم الاستعمار الافرنسي للجزائر وتقويته. وقد تم تعيينه سنة (١٨٤٠) حاكمًا على الجزائر فطور الادارة الافرنسية، ودعم الزراعة لمصلحة المستوطنين. وخاض في سنة (١٨٤٤) معركة (ايسلي)ضد المغرب وانتصر فيها فمنح لقب كونت - او دوق - ايسلي. ووقع مع الامير عبد القادر معاهدة لم يلبث ان عمل هو ذاته على نقضها.

واخيراً نجحوا في هدفهم، فقد حارب عبد القادر معركة طويلة يائسة ضد القوات المغيرة على ضفاف (الزقاق ـ أو سكاك) ولكنه تعرض في هذه المرة لهزيمة كاملة. أدرك الامير ان سبب هزيمته انما يعود الى تخلي جنوده عنه وهو في أوج انتصاره، وكانت هذه هي المرة الثالثة التي تتكرر فيها مثل هذه الظاهرة:

كانت المرة الاولى، عند استيلاء الافرنسيين على عاصمته (معسكر).

وكانت المرة الثانية، بعد غزوة تلمسان.

وها هي المرة الثالثة في معركة الزقاق.

وكل حادثة من هذه الحوادث كافية لأن تكون سبباً قوياً لسقوط قوة أعظم سلطان راسخ القدم. ومع ذلك، فانها لم تو ثر في الأمير، ولم تحصل دولة فرنسا منه على طائل مما دفع احد الكتاب للقول:

«ان تلك الوقائع تسحق عقل القوي وتضعف عزمه، ولو كان كالصخر، الا انالأمير، كان لا يبالي بذلك لأنه كان يعرف انه اذا ما ابتسم له الحظ، فإن باستطاعته التغلب على العصاة المتمردين بحد سيفه البتار». وهذا بدقة ما فعله وهو في ذروة المأزق، إذ ما كاد يبلغه أن (سيدي ابراهيم) قد اختار هذه الساعة الحرجة ليعلن ثورته ضده، ولينتحل لقب سلطان، حتى جرد سيفه من غمده، وعلقه في سرجه، وأقسم أن لا يغمده، وأن لا ينزل عن فرسه حتى يقطع رأس ذلك الخائن. واسرع بمفرده تقريباً الى قبيلة (بني عامر) حيث كان يعلم أن الخائن بينهم وطلب تسليمه في الحال. وبعد أن أفاقت هذه القبيلة من دهشتها وتأثرها من هذا القرار الصارم، سلمت الثائر (سيدي ابراهيم) الى عبد القادر، خائفة من أن يؤدي الرفض الى الاتهام

بالتآمر معه. وقطع رأس الخائن فوراً.

وكالعادة، رجع جند الأمير من ديارهم نادمين على ما فعلوه، طالبين من الامير العفو، فقال لهم: «**لقد عفوت عنكم كثيراً، وان هفواتكم كثيرة، وان العدو لنا بالمرصاد، وأخاف أن يجد ثغرة في صفوفنا فيجرنا حتماً الى النهاية ـ ويؤسفني أشد الأسف ان ينتصر جنودنا على بيجو، وان تهزمه هزيمة ساحقة، ثم تتقاعس في نفس اليوم الذي انتصرت عليه، وتخرج من المعركة لتسمح له بأن يتعقبها، وأن يقتل منها ذلك العدد الكبير... لقد جاءت التقارير بأن بيجو كاد ينتحر في منتصف النهار عندما رأى جندنا يتقدمون ويفتكون بقواته دونما هوادة ويستولون على الغنائم، ويبيدون ضباطه بالعشرات، حتى ان الكثيرين من جنوده سلموا أنفسهم وعتادهم. وبدلاً من أن تتابع جيوشنا الجهاد حتى نهايته، اكتفت بما حققته، ورجعت الى ديارها تاركة وراءها عدداً قليلاً من المجاهدين، ففتك بهم بيجو واعتبر هذا الانتصار التافه، انتصاراً لا نظير له. ايها الاخوة! ان الجنرال بيجو اذ يعتبر انتصاره في هذه المعركة انتصاراً، فانه على حق، لأن المعارك التي خاضها قادة فرنسا قبله كان نصيبهم منها الخذلان. وعليه فأقول لكم اني تأثرت بواقعة الزقاق التي هي في الحقيقة لا تقدم ولا تؤخر، وانما غرور بيجو قد خلق منها معركة كبرى حتى يشق لنفسه الطريق الى السلطة، حيث ان الحكومة بعثته على سبيل الاختيار، فان هو نجح، فسترسله للجزائر، وان فشل فستبقيه في فرنسا. ولقد علم هو بهذا السر فأجهد نفسه حتى انتصر بسبب نقصان عدد جنودنا**».

رجع (بيجو) بعد معركة (الزقاق) الى وهران، وطير الخبر الى

دولته يبشرها بانتصاره، ويتبجح بما أحرزه من النصر في أول معركة له في بلاد الجزائر. ثم توجه الى فرنسا لاستثمار هذا النصر، وإعداد نفسه لممارسة دور اكبر، مستفيداً من اخطاء خصمه (كلوزول)، ومعززاً مكانته بقوله: (افسحوا المجال لعبقرية فرنسا). وبتأثير من (بيجو) أرسلت وزارة الحرب الافرنسية الى (كلوزول) رسالة جاء فيها: «انك لم تقم بواجبك، حيث انك لم تتخذ الضمانات الكافية في وهران، وعلى أية حال، فان الوضع بعد الانتصار الضئيل الذي احرزه بيجو يهدد الوجود الافرنسي في الجزائر بالخطر» وطلب (كلوزول) دعم حكومته لمجابهة الموقف المتدهور، وعندما استشير (بيجو) في موضوع إرسال الامدادات أجاب: «ان الوقت غير ملائم لذلك، ويجب أن يترك الأمر الى الجنرال كلوزول حتى يجد الحل المناسب، فاذا ما عجز عن ذلك، فيجب اخراجه من الجزائر» ولم يجد كلوزول امامه سوى التوجه الى باريس في محاولة للحصول على الدعم. غير انه لم يجد هناك من يستمع اليه، وعندما طلب الى وزير الدفاع الخطة التي يقترحها، اجابه: «اننا هنا نجهل كل شيء عن الجزائر. ولك بصفتك قائداً عاماً اختيار الخطة المناسبة وتنفيذها بما يتوافر لديك من القوات، فان نجحت فذاك، وان فشلت فللوزارة ان تفكر في الامر» ورجع كلوزول خائباً، فقرر غزو (قسنطينة) في محاولة لاخضاع (الباي احمد) على أمل إحراز نصر يدعم موقفه. وحشد كل القوات، وشرع في التحرك - في شهر تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٨٣٦ م. فوصل الى (عنابة- بونة) ثم انتقل الى (قالما) حيث استراح وجنده لمدة ثلاثة ايام، سار بعدها الى (قسنطينة) ولما وصلها اشتبك في معركة قاسية، أبلى فيها القائد (ابن عيسى) أفضل البلاء، وامكن له في يوم واحد القضاء على كلوزول وقادة جيشه الذين جاؤوا معه.

وتركوا وراءهم القتلى والعتاد، ولم ينج أي واحد منهم؛ وتمكن كلوزول من إنقاذ نفسه والنجاة من الموت بأعجوبة؛ ولكن بعد ان ترك ابنه قتيلاً في هذه المعركة. وعزلت فرنسا (كلوزول) الذي غادر الجزائر حاملاً معه قلب ابنه القتيل وتوجه إلى اسبانيا حيث قضى فيها بقية ايام حياته.

كان الامير عبد القادر يتابع الموقف، ويحشد قواته، ويحكم الحصار على القوات الافرنسية التي نجحت في اقامة بعض المراكز الداخلية، غير أنها لم تكن قادرة على الاتصال بها أو الوصول اليها، وكانت رسائلها تحجز، وتقطع رؤوس حامليها بدون تمييز، ولم تتمكن القبائل المتحالفة مع الافرنسيين إمدادها بالمؤونة. وسواء كان الافرنسيون في وهران أو في تافنه، فانهم كانوا لا يستطيعون التحرك الا في فرق كبيرة. وكانوا في هذه الحالة يحتاجون الى تموين ضخم، وحيوانات تحمل الاثقال ووسائل للنقل. وكان أهل الدوائر والزمالة، طلباً للأمن تحت حصون وهران، يعيشون على مؤونة مقترة يتصدق بها عليهم حماتهم من حين لآخر. اما في تلمسان فان (كافينياك) كان يشتري القطط لمائدته بمبلغ اربعين فرنكاً للقط الواحد. وعندما علم (الامير عبد القادر) بنوايا (كلوزول) وبتحركه نحو (قسطينة) امتنع عن اتخاذ أي إجراء قد يفسد التطور الكامل لتلك الخطة. ومنى نفسه بأنه سيكون هو المستفيد في النهاية سواء نجح الافرنسيون في خطتهم أو فشلوا. ذلك انه اذا ما انهزم احمد باي قسنطينة فانه سيتخلص من منافس خطير، دون جهد من جانبه، وستكون القبائل العربية في قسنطينة عندها حرة للانضمام اليه والعمل تحت لوائه. اما اذا انتصر الحاج احمد باي قسنطينة، فان الافرنسيين قد يغادرون الجزائر بعد أن تكون قواتهم قد استنزفت، غير أن ذلك قد يفتح مجال الصراع الطويل

مع احمد باي قسنطينة. ولكن توقف الامير لم يستمر طويلاً، وانتصر الحاج احمد. وعندها عرف عبد القادر ان ساعة الحسم قد اقبلت. فأصدر امره من مقر قيادته في المدية، للقيام بهجوم شامل ضد كل المراكز الافرنسية بين الأطلس والساحل. وتدفقت آلاف العرب والقبائل من الجبال كالسيل الجارف، وانضمت اليها قوات تيطري، فعملت على تدمير المؤسسات الافرنسية الاستعمارية واحراقها، واسرت المستوطنين الافرنسيين، وبلمحة واحدة لم يبق للافرنسيين وجود حقيقي في اقليم وهران. وأصبح سهل (متوجة ـ متيجة) تحت رحمة قوات الأمير الذي أصدر امره الى خليفتيه (مصطفى بن التهامي وابن حميدي) بالتوجه الى وهران والاستيلاء عليها، وعزلها عن كل اتصال بالسيطرة على محاور الطرق المؤدية اليها. وتم تنفيذ ذلك بنجاح. وفي الوقت ذاته كلف الامير عبد القادر خليفته (محمد بن علال) بالتوجه الى الجزائر، فأشعل ناراً حامية على قيادة الجيش هناك، وضيق على القبائل المتنصرة، بل على الافرنسيين انفسهم، وسار حتى دخل مدينة الجزائر ذاتها. وأصبحت القيادة الافرنسية في الجزائر غير موجودة عمليا.

توجه الامير بعد ذلك الى (تلمسان) ودخلها، وذهب لزيارة قبر الولي الصالح (سيدي بومدين). وهناك كانت تنتظره مباغتة غير متوقعة. فقد كان القائد (ابن نونه) متعلقاً باستار الضريح، لائذاً به، فأمنه الامير بعدما اعترف على ملأ من الناس بأنه أتى نكراً واقترف ذنباً ولم يكتف الأمير بتأنيبه، بل انه تجاوز عن اعماله، فأقره على طائفته، بعد أن أماط كل لثام، وجلا كل شك وشبهة عن عصيان هذا القائد.

أصبحت حالة الحاميات الافرنسية مثيرة للشفقة، فقد أصبح

الرعب من المجاعة مسيطراً على جند هذه الحاميات. وهنا ظهر (اليهودي دوران) ليمارس دور الوساطة. فقد اقنع الامير: «بان الفوائد التي سيحصل عليها من إطعام الافرنسيين ستفوق كثيراً - حتى من الوجهة العسكرية - قيمة أي نصر يمكن ان يحققه عن طريق تجويعهم». وفي الوقت ذاته، وبعد موافقة الامير على هذا المبدأ، توجه (دوران) لمفاوضة (بروسارد) الذي اصبح قائداً على وهران ليفاوضه بقوله: «ان الافرنسيين في حاجة الى القمح واللحم، والسلطان من جهته في حاجة الى الحديد والرصاص والكبريت. فليبتع كل طرف ما يحتاجه من الطرف الاخر، وسيكون الجميع راضين. ويجب ان لا يخشى ابدا بان هذا الاجراء سيكون على حسابك ولصالح السلطان. فهو لن يظهر ابداً في القضية، اذ انني أنا الذي سأبيعكم القمح واللحم. وانتم ستبيعونني الحديد والكبريت، ولن يعرف السلطان سوى عن طريق غير مباشر بان المواد الاولى لكم، والمواد الاخيرة له. بل ان السلطان مستعد للسماح لكم باستئناف تموين تلمسان. ولكن ما دام هذا الامتياز بدون شك سيغضب ويثير سخط العرب الذين يحقدون على الوجود الافرنسي في تلك المدينة، فان السلطان لن يأخذ على عاتقه سوى كراهية ومسؤولية الترخيص به، على شرط ان يطلق الافرنسيون سراح جميع الأسرى الذين سجنوهم اثر معركة الزقاق وان يعيدوهم اليه». وفي الحال، قبل (بروسارد) هذا الاقتراح وتم الاخذ به وتنفيذه. وكان ذلك بداية الطريق الى معاهدة (تافنة) او معاهدة (عبد القادر- بيجو)

٦ـ معاهدة (عبد القادر ـ بيجو)
٣١ـ ايار ـ مايو (١٨٣٧ م)

صدمت الحكومة الإفرنسية لدى وصول أخبار هزائم قـواتها في الجزائر. فأسرعت بعزل (كلوزول) وعينت (الجنرال بيجو) مكانه. وحددت له مهمته بالتالي (اما أن يعقد الصلح مع عبد القادر واما أن ينتصر عليه). ووصل بيجو الى الجزائر، وبدأ على الفور اتصالاته بالامير. وجرت مرحلة طويلة من المفاوضات، وتبادل الرسائل. غير انه كان من المحال على الامير الانفراد بأمر خطير بدون استشارة قادته وزعماء قومه. فدعا الى مؤتمر عام يجتمع على ضفة نهر (هبرة) يوم ٢٥ ايار ـ مايو ـ ١٨٣٧. وفي الموعد المحدد، حضر شيوخ القبائل الكبار وزعماء الفرسان العسكريين، وشيوخ المرابطين وأعيان المجاهدين في اقليم وهران. وافتتح الامير المؤتمر بقوله: «لا اريد ان أسمع أحداً منكم يتهمني بالرغبة في عقد السلام مع المسيحيين. ان قضية السلام والحرب هي قضية انتم الذين تقررونها» ثم تابع حديثه فشرح طبيعة المراسلات التي تمت بينه وبين بيجو، والاقتراحات والعروض التي تقدم بها كل منهما للاخر. وتبع ذلك حوار طويل وعاصف. إذ وقف عدد من المخلصين لقضية الجهاد لمعارضوا الاتفاق مع اعداء الدين وانضم اليهم الراغبون في مقاومة

الامير. وكذلك الذين شعـروا بان الحرب توفر لهم المناخ الملائم للكسب والمساومة غير أن شيوخ المرابطين تصدوا للموقف وعالجوه بطريقة حكيمة تعتمد على التمييز بين السلام والاستسلام، بين سلام مقبول وسلام مطلوب وقالوا لهم بأن القرآن الكريم لم يقر ابداً اهدار الدم بدون جدوى، بعد أن استسلم الكفار، ونادوا بوضع السيف في غمده، ان الافرنسيين قد استسلموا وطلبواالصلح. وان السلطان قد املى شروطه عليهم. وتغلب هذا المنطق على المعارضة. وتم التوقيع على المعاهدة (التي عرفت بمعاهدة تافنة حيث تم تبادل الوثائق)[1]. وما ان عاد (بيجو) الى الجزائر، حتى أصبح حر اليدين لتطوير العمل العسكري فزج قواته كلها ضد (احمد باي قسنطينة) وامكن له تحقيق انتصار حاسم ضده، ودخلت القوات الافرنسية مدينة (قسنطينة).

أصبح باستطاعة الامير عبد القادر التفرغ لبناء الدولة، واعادة تنظيمها، وزيادة قدرتها، وهو يدرك تماماً انه لا بد وأن يتجدد الصراع ضد قوى الاستعمار الافرنسي. واصطدمت عملية اعادة التنظيم الشامل بمجموعة من العقبات، لم يكن اقلها امتناع قبائل كثيرة عن دفع الضرائب، بحجة عدم الحاجة لمثل هذه الضرائب طالما أن الحرب قد توقفت. فاضطر في البداية لاخضاع تمرد المتحالفين من بني مختار وبني نائل وبني موسى وبني عبيد والزناخرة الذين كان يترأسهم محمد ابن عودة زعيم اولاد المختار (قرب قصر البخاري). وجهز من اجل ذلك جيشاً يضم (١٢) الف فارس (والفي) راجل مع بعض المدافع. وامكن له الانتصار على قوات التمرد. ثم قرر الانتقال بقواته الى منطقة الاغواط (جنوبي الصحراء العظمى والواقعة على بعد مائتي ميل

---

(١) انظر قراءات (٢) في نهاية هذا الكتاب حيث نصوص هذه المعاهدة.

جنوب وهران) وذلك لاخضاع بنو عراش (في عين ماضي) والذين كان يتزعمهم (التيجيني) ودارت معارك طويلة، استنزفت فيها قوات الطرفين المتصارعين، وانتهت بانتصار الامير عبد القادر. أصبحت الجزائر الان دولة مكتملة الاركان، ثابتة البنيان، وشعر الامير عبد القادر انه قد انجز الواجب الذي حملته الامة الجزائرية اعباءه. فقد هزم الافرنسيين، ووقع معاهدة سلام مشرف، وكانت مملكته نموذجاً للتنظيم الرائع، لقد لبى نداء واجبه الديني في ساعة العسرة، وانقذ قومه في ساعة البلوى. غير انه اضاع نفسه في امته، لقد هجر أهل بيته، وفقد عزلته التي كان يجد فيها متعته العقلية، فمنذ اليوم الاول لمبايعته، وقف امام زوجته ليقول لها:

«لقد وضع القوم أمانة في عنقي، ومن الواجب علي القيام بها، وان ذلك لا يدع مجالاً لي حتى اقوم بواجباتي الزوجية على اكمل وجه، ولك ان اردت البقاء معي من دون التفات الى طلب حقوقك المقدسة، فاني اوافق الموافقة التامة على ذلك. وأما ان كان قصدك الا تفرطي فيها فأمرك بيدك، وذلك لاني قد تحملت ما يشغلني عنك» واجابته الزوجة الصالحة ـ ابنة عمه ـ «لقد رضيت لنفسي ما ارتضيته لنفسك» وأخلص الزوجان لقضية الاسلام.

وبعد التوقيع على معاهدة تافنه، وبينما كان هو في سبيله لمحاربة الخارجين عن الطاعة والجماعة، مر الامير عبد القادر بالقرب من (معسكر) وعلمت زوجته بذلك، وكانت قد مضت شهور عديدة لم تره خلالها، فبعثت اليه الرسل ترجوه ان يعرج نحوها، ولو يوماً واحداً، غير انه اجاب «بأنه مزفوف الى بلاده». ولقد حدث مرة ان

مضت عليه فترة تزيد على السنتين لم يسمح لنفسه بوقت يذهب فيه لرؤية عائلته.

وها هو الان يحاول استئناف حياته الخاصة، والقاء اعباء المسؤولية على عاتق سلطان المغرب، وتسليمه الامانة، فيكتب له ـ بعد الديباجة ـ ما يلي:

«ان شعب الجزائر متحد الان، وان علم الجهاد قد طوي، فالطرق آمنة وعامرة، والعادات السيئة قد قضي عليها، وتستطيع المرأة ان تعبر البلاد وحدها، ليلاً ونهاراً، من الشرق الى الغرب، دون خوف على نفسها. وقد يلتقي الرجل بقاتل أخيه، فلا يجرؤ على الانتقام منه، بل يحتكم الى القضاء. وان كتاب الله وسنة رسوله هما فقط اساس الاحكام. والمواد الضرورية لجيشنا كثيرة، الى جانب الرجال الذين يملؤون صفوفه. كل ذلك بفضل الله وتأييده، وبفضل دعواتكم ورضاكم عنا. ولولا ذلك لكنت اضعف الناس عن انجاز كل هذا...

اني لم اتقدم لتولي مسؤولية الحكومة بدافع الطموح، او الرغبة في السلطة والجاه، أو حباً في ثروات الحياة الدنيا. ولكن ـ والله وحده يعلم اسرار القلوب ـ لأحارب في سبيل الله، ولأحقن الدماء بين المسلمين، ولأحمي املاكهم، ولأمهد البلاد، كما تقتضي ذلك الغيرة على الدين والوطن. ومنذ تحملنا المسؤولية ونحن بالمرصاد ليلاً ونهاراً، متنقلين في طول البلاد وعرضها، في السهل والجبل، مرة نقود المعارك، وأخرى ننظم شؤون الدولة **ونحن الان نرجو من سموكم ان ترسلوا أحد ابنائكم أو أحفادكم أو خدامكم لتولي سلطان الحكم، لان البلاد الان موطدة وليس هناك معارضة من اية جهة.**

وسأكون أول من يعمل تحت ـ قيادة ـ من ترسلونه، وان أسخّر كل امكانياتي الضعيفة الى أقصى حد لذلك، وان اساعده بالرأي والنصيحة.

انني أثق في ذلك الاعتبار والسماحة، التي تميزكم، من أنكم ستقبلون رجائي في اعفائي من الحمل الذي يثقل كاهلي. وانني أرسل الى مقامكم بعض الهدايا التي كان ملك الافرنسيين قد أرسلها الي، والتي لم أبق منها عندي سوى بندقيتين صغيرتين. كما أرسل اليكم بعضاً من أفضل البغال في الجزائر. ان عددها، بالاضافة الى عدد الأشياء الاخرى، يوجد مفصلاً في مرفق داخل هذه الرسالة. واننا نرجوكم ان تقبلوا عذرنا، ونأمل في رضاكم وسروركم- وسيحمل اليكم الهدايا المذكورة، أخي الذي وكلته عني ليتشرف بمقابلة سموكم، وليحمل اليكم تقدير وتأكيد اخلاص ابنكم وخادمكم».

عبد القادر بن محيي الدين

محرم ١٢٥٤- تشرين الاول- اكتوبر- ١٨٣٨

ورد السلطان (عبد الرحمن) برسالة حملت تقديره العالي للامير، ورفضه حتى ان يسمع لحظة واحدة هذا التخلي عن الحكم من شخص اظهر كفاءة عظيمة في القيادة والتنظيم والتجديد وانقاذ بلاده، ودعى الامير عبد القادر، باسم الاسلام، أن يظل كما كان، بطلا للجهاد، وأن يكمل عمله الشريف، وأن يوسع وينجز واجبه، واخيراً طلب الى الامير أن يرسل اليه قميصه كأثر يحتفظ به في مسجده الخاص.

لم يكن الامير عبد القادر، وهو يتنازل عن قيادته العامة، يهرب من الواجب، ويتخلى عن المسؤولية وانما اراد توسيع دائرة الجهاد،

فقد وعد سلطان المغرب (عبد الرحمن) بوضع سيفه وعقله تحت تصرف من يوليه السلطان أمر الجهاد ضد اعداء الدين. وكان يدرك يقيناً أن ما هو مقبل من الاحداث سيكون اكثر خطراً مما مضى، وهذا ما يتطلب حشد كل القوى. ومن اجل ذلك كان لا بد له من الاعتماد على جناحين قويين في المغرب وتونس، وعلى دعم من كل العالم الاسلامي فكتب الى السلطان العثماني رسائل عديدة، غير ان ابراهيم باشا- شغل الخلافة العثمانية بأمورها-وجاء تدخل روسيا في الشمال ليصرف دار الخلافة عن كل امر يتجاوز حدود الخطر المباشر الذي بات يدق ابواب عاصمتها. ولم يبق على الامير الا زيادة الاعتماد على قدراته الذاتية، فالتفت الى البلاد ينظمها والى القوى يحشدها. ولم تمض فترة حتى تأكدت مشاعر الامير، وأصبح الظن يقيناً. فقد أخذ الافرنسيون في البحث عن الثغرات لنقض معاهدة (تافنة) من اجل تطوير استعمارهم للجزائر، لا سيما بعد أن زالت معظم المقاومات، ولم يبق فوق أرض الجزائر سوى قوة وحيدة متماسكة هي قوة الامير عبد القادر. وقد تذرعت فرنسا بتفسيرها الخاص لنصوص البند الثاني من معاهدة (تافنة). فاعتبرت ان فقرة (تملك فرنسا في اقليم الجزائر، مدينة الجزائر والساحل متيجة ممتداً نحو الشرق الى وادي القدرة وما وراءه) في حين كان النص العربي يتضمن كلمة (فوقه) مما يخضع للامير عبد القادر. وكان هذا الهامش الجغرافي هو البداية لتجدد الصراع.

٧ـ نقض المعاهدة واستئناف الحرب

(١٨٣٨ـ ١٨٣٩ م)

تم تعيين الماريشال (فالي)[1]حاكماً عاماً على الجزائر في ٣٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٣٧ . وقد طلب عند تعيينه تعليمات الوزارة الافرنسية، فجاءه الجواب بسيطاً «التمسك بمبدأ امتلاك الجزائر ـ ويجب ان يكون المفهوم من عبارة ـ وادي القدرة وما وراءه ـ كل البلاد الواقعة في اقليم الجزائر والواقعة وراء وادي قدرة حتى اقليم قسنطينة، وان وضوح الدليل مستقلاً عن الاعتبارات السياسية، لا يسمح بأي تنازل عن هذه النقطة. وما دمنا اسياد اقليم قسنطينة فاننا لا نستطيع أن نبقى بدون طرق أرضية تصلنا به». وأرسل (فالي) هذه التعليمات الى الامير عبد القادر، وأخذ في مفاوضته على شروط تنفيذها، ولكن الامير اتخذ الاجراء المناسب والعملي بشأن المنطقة المتنازع عليها، او بالاحرى تلك التي تريد فرنسا السيطرة عليها، ما بين الجزائر وقسنطينة ـ فركز جهده للسيطرة على كل المناطق جنوب (تيطري). وامسك بقبضته القوية كل القبائل

---

(١) فالي: (SYLVAIN« CHARLES« VALLEE) ماريشال فرنسي (١٧٧٣ـ ١٨٤٠) المنترك في سنة ١٨٣٧ باقتحام قسنطينة وأصبح حاكماً على الجزائر.

الواقعة على حدود اقليم قسنطينة. وارسل قواته فاحتلت كل الاراضي المتنازع عليها وراء (وادي القدرة). وبالاضافة الى ذلك جعل هذه الأراضي مسرحاً لنموذج من اعماله الصارمة التي لا تعرف المساومة نحو الذين خانوا الدين. فهناك مجموعة من الكراغلة كانت قد استوطنت هناك حديثاً تحت حماية الافرنسيين. وقد دعاهم عبد القادر الى قطع علاقتهم الخائنة مع الافرنسيين، ولكنهم رفضوا. وكان الافرنسيون يمدونهم بالسلاح والذخيرة حتى يقاوموا عبد القادر، ولكن الامير نزل عليهم وسحقهم وقطع رأس القائد العميل. وفي الحال، اعلنت كل قبائل مقاطعة (سباو) الواسعة خضوعها. وقد عين عبد القادر أحمد بن سالم ليكون خليفته عليهم. وأصبح عبد القادر الآن صاحب السيادة المطلقة على ثلثي الجزائر. وان المناطق التي احتلها اخيراً والتي تقع في جنوبي ـ شرقي اقليم الجزائر كانت ذات فائدة كبيرة للافرنسيين، لان معسكرهم في (قسنطينة) كان يعتمد في مواده الغذائية عليها. فأخذوا يشعرون بعد ذلك الحادث ان عبد القادر يمكنه في أية لحظة ان يوقف التموين والإمداد عن الافرنسيين، وقد عرف الامير عبد القادر ان حركته الاخيرة ستستثير فرنسا، ووجد انه من الضروري اجراء تحرك ديبلوماسي لتغطية تحركه العسكري، فكتب رسالة الى ملك فرنسا (لويس فيليب) يشكره على هديته التي كان قد أرسلها عشية التوقيع على معاهدة (تافنة) وحمل رسالته هذه الى (ميلود أوـ مولود بن عراش، واليهودي دوران) واخذا معهما ستة أحصنة عربية مسومة. وكانت مهمة الوفد تتجاوز حدود المجاملة، فقد كان على الموفدين تهدئة المخاوف الافرنسية من جهة. والتفاهم في موضوع بقاء المنطقة المتنازع عليها تحت سلطة الأمير. غير أن هذا الوفد عاد من مهمته فاشلاً. وعلم الامير وهو في (تاقدامت) يوم ١٠

كانون الثاني - يناير - ١٨٣٩ م. عن طريق وفده بتصميم فرنسا على التوسع والاستيلاء، فكان رده: «ابداً - ابداً - لن اصادق على معاهدة تمنح الافرنسيين جسراً ارضياً بين قسنطينة ومدينة الجزائر، لأخسر بذلك كل الثمار التي جنيتها نتيجة قصر نظرهم بجعل الجزائر محاطة بحلقة مكونة من البحر والشفة وجبال الأطلس الصغرى الواقعة مباشرة فوق وادي القدرة». ولكن على الرغم من هذا الرد الحاسم. فقد استمر الامير عبد القادر في بذل جهد المستطاع لتجنب اندلاع الحرب. وتابع اتصالاته بالمارشال (فالي) الذي رغب في بذل الجهود ايضاً لتحقيق اهداف فرنسا بطريقة سلمية، فارسل الضابط (دوسال) في شهر شباط - فبراير - ١٨٣٩ الى (مليانه) حيث كان الامير قد عقد مؤتمراً لكل القادة والشيوخ لاستشارتهم. وتحدث (دوسال) الى المؤتمرين، فكان جوابهم جميعاً: (الحرب اولى من التنازل عن المناطق المتنازع عليها) وعزز الامير جهوده السلمية بكتابة عدد من الرسائل الى ملك فرنسا (لويس فيليب) وإلى وزير الحربية الإفرنسي، غير أن كل[1] هذه الجهود احبطت بارسال (دوق - دي اورليانز) ابن ملك فرنسا (لويس فيليب) والذي ما ان وصل الى الجزائر حتى بدأ عمله بالإشراف على حملة تتحرك من ميلة في أقليم (قسنطينة) مارة بمضيق - باب الحديد - عابرة المنطقة المتنازع عليها، متقدمة منها إلى مدينه الجزائر. وأحيطت خطة العملية بنطاق محكم من الكتمان والسرية. وبدأت القوات الإفرنسية تحركها نحو (بجاية). فاسرعت القبائل

(١) دوق دي اورليانز (DUC D'ORLEANS) من اسرة اورليانز الشهيرة وقد عرف باسم دوق دومال (HENRI DUC D'AUMALE) وهو الابن الرابع للملك لويس فيليب الأول. جنرال ومؤرخ افرنسي (١٨٢٢-١٨٩٧) وهو من مواليد باريس اكتسب شهرة من خلال حرب الجزائر. وكان في الحملة التي استولت على (الزمالة) مقر الأمير عبد القادر سنة ١٨٤٣

للدفاع عن بلادها ضد العدوان، وغادر المارشال (فالي) و (الدوق) مدينة ميلة يوم ١٨، تشرين الثاني- اكتوبر- ١٨٣٩. ووصلا مدينة (سطيف) من اتجاهين متقابلين يوم ٢١ منه. وطلب شيوخ القبائل مقابلة المسؤولين الإفرنسيين، وعندما قابلهم كبار الضباط، ابرزوا لهم جوازات سفر تحمل خاتم الأمير عبد القادر تسمح للقوات الإفرنسية بالمرور، فرضي الشيوخ بذلك، وكانت هذه الجوازات مزورة. كما كان ختم الأمير قد زور ايضاً. وبدلا من دخول جبال القبائل، عادت القوة التي تحركت نحو بجاية القهقرى. ثم تقدمت نحو (باب الحديد) بعد ان انضمت إلى قوات (فالى). وقام شيوخ القبائل بوظيفة الادلاء المرشدين عند التقدم عبر المنطقة الجبلية الصعبة، وكانوا مغتبطين بتسهيل تقدم اصدقاء الأمير وحلفائه. وبفضل هذه الخدعة، مرت القوة الإفرنسية المكونة من (٥) آلاف مقاتل تقريباً عبر المضيق الهائل لباب الحديد دون طلقة واحدة. ولو كان الأمير عبد القادر هناك بقوة لا تزيد على (٥٠٠) رجل لما كان بوسع الإفرنسيين دخول (باب الحديد) أو لما كان في استطاعتهم الخروج منه.

مر الافرنسيون في اليوم التالي وسط قبيلة بني منصور التي باغتتهم كما لو نزلت عليهم من السماء. ووصلت القوة الافرنسية يوم ٣١ تشرين الثاني - اكتوبر - الى (بني يني) وهناك تبادل العرب والافرنسيون النار اخيراً. ولم يكن (لابن سالم) خليفة الامير عبد القادر في تلك المنطقة الوقت الكافي للاستعداد من أجل مواجهة تقدم الافرنسيين، لذلك اندهش عندما سمع بتقدمهم. واخذ في الاستعداد متأخراً، إذ لم يلبث (الدوق) ان دخل الجزائر ومعه (فالي) يوم ١ تشرين الثاني - نوفمبر - دخول المنتصرين، واستقبلوا فيها استقبال الفاتحين. وقد دامت الاحتفالات بهذا الحادث أربعة ايام

كاملة. واقيم احتفال ضخم في ساحة (باب الواد) تكريما لابطال (باب الحديد). عندما علم الامير وهو في (تاقدامت) بهذا الانتهاك الصارخ، ركب فرسه وسار ليلاً ونهاراً حتى وصل الى مدينة المدية بعد (٤٨ ساعة). وارسل الى (فالي) برقية احتجاج شديدة اللهجة كما كتب لابن سالم، تعليمات جديدة لمجابهة الموقف الجديد جاء فيها:

«ان خرق الاتفاق قد جاء من المسيحيين! ان العدو امامكم. اجمعوا امركم واستعدوا للمعركة. ان الدعوة الى الجهاد قد وجهت الى كل مكان. وانت رجل هذه الجهات. وانني اضعك هناك لتمنع دخول العدو. . . احذروا البلبلة. اربطوا احزمتكم وكونوا مستعدين لكل شيء. كونوا على مستوى الحوادث. وتعلموا الصبر فوق كل شيء. لا تدعوا للضعف الانساني مجالاً بينكم. انها محن أرادها الله. وان هذه المحن قد خالطت مصير كل مسلم صالح تعهد ان يموت من اجل دينه. وسيكون النصر ان شاء الله حليف خطاكم. والسلام من عبد القادر بن محيي الدين» وفي الوقت ذاته وجه الى خلفائه الاخرين رسائل ذات مضمون واحد جاء فيها:

«ان الكافر قد جبهنا بالخيانة، ودليل خيانته واضح كالنهار، لقد عبر بلادي دون اذني، فاجمعوا شملكم، واربطوا احزمتكم استعداداً للمعركة. انها على الابواب. وان الخزينة العامة غير غنية. وانتم انفسكم لا تملكون النقود الكافية تحت ايديكم لتواجهوا الحرب. فاجيبوا اذن حالما تتلقون الأوامر بضريبة اضافية. كونوا عجلين في عملكم. وسارعوا الى الانضمام إلي في المدية حيث انتظركم». واجتمع الخلفاء والشيوخ والزعماء في المدية، واستمر النقاش طويلاً، وطرحت قضية الحرب «فنادت الاصوات ـ باستثناء

صوت واحد ـ بالجهاد» فقال عبد القادر: «ليكن ذلك ما دامت هذه هي رغبتكم. ولكني اقبل المسؤولية بشرط واحد. انكم ستتعرضون للتعب والمشقة والمحن والخيبات. وقد تقنطون أو تتعبون من الحرب. فأقسموا لي اذن على القرآن الكريم انكم لن تتخلوا عني ابداً ما دمت احمل راية الجهاد» فأقسم له جميع الشيوخ والخلفاء.

وفي يوم ٢٨ تشرين الثاني نوفمبر ـ ١٨٣٩. اعلن عبد القادر رسميا الحرب على الافرنسيين وذلك ضمن رسالة وجهها الى المارشال جاء فيها:

«من الحاج عبد القادر امير المؤمنين، الى المارشال فالي. السلام على من اتبع الهدى. لقد اتصلت بأول رسائلك واخرها. وقد قرأناها وفهمنا محتواها. لقد سبق لي أن اخبرتكم بان جميع العرب من ولهاصة حتى الكاف (من حدود المغرب حتى حدود تونس) مجمعون على الجهاد، وقد بذلت كل مجهوداتي لتهدئتهم لكن بدون جدوى. ويجب علي طبقاً لشريعتنا الخضوع للإجماع. وانني اعمل بوفاء لكم حين اخبركم بما يجري. فارسلوا الي قنصلي الذي هو في وهران. ويمكنه ان يعود الى اسرته. وكونوا مستعدين. فالمسلمون جميعاً قد اعلنوا الجهاد. ومهما حدث فانكم لن تستطيعوا اتهامي بنقض العهود. ان قلبي صاف ولن تجدوني اعمل خلافاً للعدل» **كتب مساء الاثنين بالمدية في الحادي عشر من شهر محرم سنة ١٢٥٥ (١٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٣٩).**

لقد لمع البرق وسط السحاب، وانفجرت العاصفة، ولم تمض ساعات على اعلان الحرب، حتى كان الامير عبد القادر يقف فوق مرتفعات (بني صالح) ليتابع منظراً نادراً ما يحدث في التاريخ، لقد

تدفقت جموع العرب وقبائلهم فغطت سهول مدينة الجزائر، في حين كانت افواج جديدة تنحدر من مختلف الجبال المجاورة لتنضم الى ذلك الحشد الهائل. وغصت مضائق الاطلس وشعابه بالفرسان والمشاة، لقد انحدروا وكأنهم انهيارات ثلجية ضخمة حطت فوق سهول مدينة الجزائر.

كان خليفتا المدية ومليانة قد عبرا نهر الشلف يتقدمان جنودهما. واحاط ابن سالم بجيشه من القبائل بالمراكز والمستعمرات الافرنسية المنعزلة من الشرق. وجاء اهل (حاجوط) هائجين من الغرب. وفي الحال، هوجمت المستعمرات وخربت المؤسسات الزراعية ودمرت المراكز الافرنسية بهذا الطوفان، وغطى دخان القرى المحترقة الجو، فأظلم. وهرب الافرنسيون الى الجزائر (المدينة)، التي اجتاحتها موجة من الفزع وملأت الشائعات المرعبة المدينة. فجلى الناس عن منازلهم وقاد الأمير قواته لمهاجمة (قلعة بودور) وهنا ظهرت اول صدمة عنيفة حيث استطاعت نيران المدفعية الإفرنسية إيقاف موجة المقاتلين العرب بفضل كثافة نيرانها ودقتها. وتحركت قيادة (فالي) بسرعة. فدعمت حامياتها وبصورة خاصة في (البليدة وبوفاريك) على أقدام جبال الأطلس. وأعلنت الحكومة الإفرنسية في الوقت ذاته «انها لن تقبل بعد اليوم مساومة أو تراجعاً. وان الجزائر قد أصبحت منذ الآن والى الابد مقاطعة فرنسية». ووصلت التعزيزات العسكرية بسرعة الى مدينة الجزائر. وارتفعت القوة الفعلية التي أصبحت تحت تصرف المارشال - فالي - الى (٣٠) الف محارب. ووضع (فالي) خطة جديدة للهجوم تختلف عن مخططات القادة السابقين الذين كانوا ينفذون عملياتهم بهجمات مباغتة تتبعها عمليات انسحاب مباغتة. وكانت خطة (فالي) تتلخص فيما يلي:

١ ـ الاستيلاء على المراكز التي أقامها عبد القـادر وتخريبها، بما في ذلك مخازن أسلحته ومستودعات تموينه..

٢ ـ مهاجمة وتدمير قواته النظامية التي تعتبـر العمود الفقري لجهاز الحرب الجزائري.

٣ ـ الاحتلال الدائم للمقاطعات الآهلة بالقبائل العربية الكبرى، حتى تقنعها بقدرة فرنسا على حمايتها والدفاع عنها، وبالتالي تدمير سلطة عبد القادر والقضاء على نفوذه وفي هذا الوقت ذاته، حاولت الادارة الافرنسية في الجزائر استثارة القبائل العربية ضد الامير (قبائل بني شجران وبني غدو والحشم والشراقة والغرابة وبني شقران وسواهم).غير ان هؤلاء جميعاً اجابوا ـ على لسان شيوخهم ـ برسالة واحدة اكدت رفضهم (لاقتراحات النصراني) والتزامهم بدعم (الامير) حامل راية الجهاد في سبيل الله.

٨ ـ سنوات الصراع المرير
(١٨٤٠ـ ١٨٤٤ م)

ركز المارشال (فالي) قواته في (البليدة) على أقدام جبال الأطلس الصغرى استعداداً للقيام بهجومه الاول بالتحرك نحو (المدية ومليانة). وعبرت قواته نهر الشفةيوم ٢٧نيسان(ابريل) سنة ١٨٤٠م. وهناك ظهرت فرسان الأمير عبد القادر بأعداد كبيرة. وسار الجناح الأيمن للقوات الافرنسية نحو (بحيرة) لكنه لم يصل اليها، فقد أسرع الامير عبد القادر بقواته وعبر المساحة الوسطى واختفى، وبذلك أصبح سهل مدينة الجزائر معرضاً لضرباته، وظهر احتمال تقدم الامير كالسيل الجارف، ولكن تلك الحركة لم تكن سوى خدعة منه. فقد كان هدف عبد القادر ارغام (فالي) على ايقاف تقدمه في سهل (وادي الشلف) وارغامه على الدخول في الجبال عن طريق مضائق المزاية. وقد نجح في ذلك.

كان الامير عبد القادر قد عمل في الليل والنهار، وطوال شهور عديدة، لتصبح تلك المضائق الهائلة اكثر قدرة واكثر منعة واقوى تحصيناً حتى يتحقق الهدف التالي: «ان يلاقي الجيش الإفرنسي حتفه هنا» ومن اجل ذلك حفرت الخنادق على كل مرتفع وهضبة. ونشر الامير قواته النظامية من المشاة في هذه المواقع المحيطة بمدن (المدية

ومليانة ومعسكر وسباو وتاقدامت) وافاد من الضباط الافرنسيين الذين هربوا اليه، فعينهم لقيادة القوات في هذه المواقع. وتدفق العرب ورجال القبائل من كل جهة، فاحتلوا تلك المواقع والملاجىء مستعدين لاطلاق النار من عال، ضد القوات الافرنسية عندما تدخل متثاقلة الممر الضيق المعلق وسط المنحدرات الجبلية.

قسم (فالي) قواته الى ثلاثة مجموعات. وغادر جنود هذه المجموعات بقيادة قادتهم (دوفيفييه ولاموريسير ودوتبول) الطريق، وراحوا يقفزون في الوهاد، وتغلبوا على صعوبات الطبيعة الجغرافية للارض (الاشجار والصخور والحفر العميقة). ووصلوا الخنادق ببطء لكن بثبات. وفجأة غطى المنظر ضباب كثيف. لقد انطلق البارود ولم يتوقف، ودارت رحى معارك طاحنة استخدمت فيها كل وسائط الصراع، واظهر المجاهدون والجند النظاميون قدراً غير قليل من الشجاعة والبأس، غير ان الكثافة النارية والتفوق بالقوى على نقاط الهجوم مكن القوات الافرنسية من انتزاع النصر، ونجحت هذه القوات في رفع علمها فوق ذرى الاطلس بين دقات الطبل وصيحات الحرب المنطلقة من كل مكان. وانسحب الامير ببقايا قواته الى مليانة، التي كانت في حالة من الهياج والاضطراب والتي امكن للأمير تهدئتها بسرعة. غير ان المارشال (فالي) دخل مدينة (المدية) فوجدها مهجورة ونصف محروقة. واستخلص الامير عبد القادر الدرس بسرعة، فأصدر اوامره الى خلفائه «بتجنب الاشتباك مع القوات الافرنسية بمعركة نظامية. وبممارسة الاعمال القتالية في اطار (الازعاج والإغارة على اجنحة القوات المعادية ومؤخراتها وقطع محاور تحركاتها والاستيلاء على معداتها ووسائط النقل لديها، ونصب الكمائن والهجمات المباغتة ثم الانسحاب دائمًا بسرعة)» وكان النجاح رائعاً في

تطبيق هذه الطرائق مما وضع القوات الافرنسية في (المدية ومليانة) في حالة انهيار معنوي «واوشك معسكر ومليانة في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٠ على الاختفاء تحت تأثير مجموعة من العوامل، واهمها الجوع والمرض والغربة فمات ٧٥٠ جندياً من اصل مجموع الحامية البالغ ١٥٠٠ جندي، ودخل المستشفى ٥٠٠ جندي لاصابتهم بالحمى، أما البقية وعددهم ٢٥٠ جندياً فكانوا هياكل متحركة لا يكادون يمسكون ببنادقهم».

ونجح الامير عبد القادر في ايقاف تقدم الافرنسيين في جبال تيطري، ليس ذلك فحسب، بل انه وضعهم دائمًا تحت رحمته، من حدود المغرب الى حدود تونس، عائقاً أو ملغياً عملياتهم بجهوده التي تكاد تكون فوق طاقة البشر. فهو دائمًا على صهوة جواده، يتحرك بصورة مباغتة وسرية، يحارب اليوم الافرنسيين ليظهر في اليوم التالي وهو على بعد مسافة مائة ميل لجمع شمل قبيلة عربية ممزقة ولرفع روحها المعنوية، لذلك كان يبدو انه ـ بنظامه الحديدي الصارم ـ قد تخلى عن الراحة والاستجمام. وكأنما قد أصبح جسمه شيئاً روحانياً بالروح التي كانت تتقد فيه.

تولى الجنرال (بيجو) منصب الحاكم العام للجزائر يوم ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٤١. واخذ على عاتقه تنفيذ مخططات حكومته التي كانت قد درست قوة خصمها العنيد فوضعت تحت تصرف (بيجو) قوة تزيد على (٨٠) ألف محارب، مدعمين بأقوى وسائط القتال والاسلحة الحربية الحديثة.

ولكن الصعوبة الكبرى لم تكن في هزيمة عبد القادر بقدر ما كانت في اللحاق به. لقد كان الافرنسيون أقوى منه ولكنه كان أسرع

منهم. فقد كانوا مرغمين على التحرك فوق الطرق الممهدة، بأرتال طويلة تثقلها المدافع ومركبات الاسعاف والأعتدة. أما هو فبعد ان يرى هدف هجوم عدوه، يتجنبه مؤقتاً، ثم ينقض عليه عندما يكون في ورطة ـ مأزق ـ متخبطاً في الشعاب، ضائعاً في الوهاد. ونتيجة لذلك، أوقف (بيجو) العمل بأساليب أسلافه، ووزع قواته على أرتال متباعدة تعمل على محاور مختلفة، مما أرغم الأمير على توزيع قواته، وابقاه في حالة من الريبة والشك في نوايا عدوه. وفي الوقت ذاته تخلت القوات الافرنسية عن معداتها الثقيلة ومدافعها الضخمة، بل انها تخلت حتى عن أرتال تموينها، وكان للعرب مزية اساسية تفوقت فيها على القوات الافرنسية، ذلك انهم كانوا يجدون المواد الغذائية اينما حلوا، داخل مخازن الحبوب المنتشرة تحت الأرض، في كل الجهات، بينما كانت القوات الافرنسية ملزمة بحمل موادها التموينية. ولكن (لامورسيير) قد حل المشكلة حينما قال: «ان العرب لا يحملون تموينهم معهم. فلم نحن؟...» ولذلك فانه منذئذ أصبح رجال (لامورسيير) يحملون معهم بعض المطاحن اليدوية الصغيرة، وعندما يصلون الى مكان معين من البلاد ينتشرون هنا وهناك على مسافات تصل أحياناً بضعة كيلومترات. وأثناء تقدمهم كانوا ينقبون الأراضي امامهم بسيوفهم وحربات بنادقهم فيضربون الصخور التي كانت تغطي مخازن الحبوب، والتي لم تكن مغطاة الا بطبقة خفيفة من التراب. وهكذا اكتشفت مخازن الحبوب التي كان العرب يخفونها عن عدوهم، ومن جهة اخرى ضمنت الغارات الحصول على الغنم، وتحول القمح الى دقيق بواسطة المطاحن اليدوية. وبهذه الطريقة أصبحت القوات الافرنسية تمون نفسها في المكان الذي توجد فيه. ووضع (بيجو) مخططات عملياته العسكرية

على اساس تحقيق مبدأين (الصيانة والاعتداء). وحدد اهدافه الرئيسية باعادة تموين حامياته التي لا تكاد تقوم بتأمين مواردها الحياتية الا بجهد كبير وسط العرب المحيطين بهم من كل جانب. والاحتفاظ بالقبائل العربية التي نجح في اخضاعها تحت سلطته، وتنظيمها تنظيمًا محكمًا تحت اشراف الافرنسيين، مع ارهاب القبائل الاخرى بواسطة إغارات مرعبة لإبادتها وإحراق محاصيلها. واخيراً، في ضرب قوة الامير عبد القادر، دون هوادة ولا تردد، واحتلال مراكزه الحصينة، وتدمير مخازن اسلحته، أملاً في ارغام الامير على التراجع نحو الصحارى القاحلة.

افتتح (بيجو) حملة سنة ١٨٤١ م بمحاولة اعادة تموين مدينتي (المدية ومليانة). وكانت خسائر الافرنسيين قبل تحقيق هذا الهدف، فادحة، ذلك ان عبد القادر قد نازعهم كل شبر اثناء تقدمهم. وكان (بيجو) قد ذهب الى اقليم (وهران) ومن مستغانم قاد شخصياً حملة ضد (تاقدامت) وعند وصوله يوم ٢٥ ايار- مايو، وجدها مهجورة، بينما كانت اجزاء منها تحترق. ثم تلى ذلك تخريب (بوغار وسعيدة وتازة). وقرر الامير عبد القادر، طبقا لتنظيمه الجديد، عدم اضاعة قواته أو تشتيتها للدفاع عن قلاعه، ولذلك تخلى عنها جميعا. وكان جيشه النظامي اكثر فائدة ونجاحاً في استخدامه لعرقلة الافرنسيين اثناء تقدمهم، أو في الاحتفاظ بولاء القبائل التي ظهر عليها التردد. وقد أصبحت المدن المحصنة بالنسبة لطرائق الحرب الجديدة التي دعي عبد القادر لمواجهتها، حملاً، بل عبئاً ثقيلاً، كان يشعر بالغبطة للتحرر منه. ونجح الامير عبد القادر في اعادة تنظيم القبائل، حتى باتت تتحرك بدافع واحد، تنبسط أو تنقبض تبعاً لأوامر القيادة. وكانت تهاجم عند اقل خطر، وتختفي عندما تشعر بتتبع العدو لها.

وهذا هو المبدأ الحاسم الذي أصبح منذ الان الاساس في عمليات الامير. ومقابل ذلك، أصبح الهدف الاول للمارشال (بيجو) هو كسر حلقات هذه السلسلة المترابطة، وتحطيم السلطة التي تجعلها مجتمعة ومتماسكة، وذلك باقامة مراكز عمل دائمة في وسط القبائل والمجمعات العربية، وارسال حملات سريعة متتالية انطلاقاً من هذه المراكز حتى يتيح لجيشه ان يثبت وجوده دائما بين العرب. واعتبر (اقليم وهران) هو المسرح الاساسي للعمليات باعتباره القاعدة التي يستمد منها الامير قوته. فاحتل (لامورسيير) مدينة (معسكر) واحتفظ (بيدو)[1] بمدينة تلمسان. وكان (وشانقارنيي)[2] يراقب الحدود الغربية لسهل مدينة الجزائر. وقد ارسلت ثلاثة أرتال للتحرك من وهران ومستغانم نحو القبائل الواقعة في المنطقة الواسعة الممتدة بين البحر والأطلس، بالاضافة الى تلك التي تقع في اتجاه الصحراء. وكان الرتل الاول تحت قيادة (بيجو) شخصياً، وكان يتقدم محاذياً لسهل وادي الشلف، ثم التقى بالرتل الثاني الذي كان يتحرك تحت قيادة (شانقارنيي) منطلقاً من البليدة. أما الرتل الثالث الذي كان يقوده (لامورسيير) فقد كان يهدف الى رد عبد القادر ودفعه نحو الجنوب لعزله عن القبائل التي كان (بوجو وشانقارنيي) يهاجمانها. وهنا بدأت القصص المدهشة، والمثيرة في وقعها والسامية في عظمتها، تلك

---

(١) بيدو : (MARIE ALPHONSE BEDEAU)جنرال فرنسي من مواليد فيرتو (VERTOU) في اللوار السفلي (١٨٠٤- ١٨٦٣) برز اسمه في الجزائر.

(٢) شانقارنيي :(NICOLAS CHANGARNIER)جنرال افرنسي ورجل سياسي. من مواليد اوتن (AUTUN) (١٧٩٣ـ ١٨٧٧). اصبح حاكماً في الجزائر ثم أبعد منفياً بعد انقلاب فرنسا ١٨٥١، واعيد إلى فرنسا (١٨٥٩).

القصص العجيبة التي تمتزج فيها الجرأة بالعبقرية والايمان. والتي طبع بها عبد القادر صراعه المجيد الذي كان يقوده بشخصيته القوية.

كان (لامورسيير) ينفذ بحماسة التعليمات المعطاة اليه لمطاردة الامير عبد القادر والقبض عليه، وسمع فجأة ان الامير كان أمام (معسكر). وعندما أعد خطته للوصول بسرعة الى ذلك المكان، عرف أن عبد القادر قد مر قريباً من مؤخرة قواته، وانه كان يقوم بغزوة ضد قبائل البرجية. وعادت المطاردة، ولكن عبد القادر عبر من جديد (نهر الشلف) بمناورة جريئة وسريعة، تاركاً خصمه وراءه في حيرة وذهول، ومر بين قوات (بيجو) والبحر وسرعان ما استرجع مكانته بين القبائل التي فرت منه في ذلك الاتجاه، وقام بغزوة اخرى سريعة في جنوب (مليانة). ثم اسرع نحو الصحراء،. حيث ظهر بكامل قوته. في نفس الوقت الذي كان الفرنسيون قد رجعوا الى قواعدهم يائسين من العثور عليه. أثناء ذلك، كان الجنرال (بيدو) قد نجح في فرض سيطرته على عدد من القبائل المنتشرة على الحدود (المغربية- الجزائرية) ومن ابرزها قبيلة (ندرومة) مماهدد مؤخرة الامير وطرق تموينه الرئيسية. فقاد الامير عبد القادر قواته واسرع نحو الحدود المغربية، وبمجرد وصوله انضمت اليه (قبائل ندرومة وبنو سناسن) ودعموا قوته بثلاثة آلاف فارس وخمسة آلاف راجل. فمضى بهم الى القتال. واصبحت هضاب ووديان جبال ترارة وندرومة وضفاف تافنة والزقاق مسرح اشتباكات طاحنة بين الامير و (بيدو) طوال شهري آذار ونيسان (١٨٤٢)- مارس وابريل- وافاد (لامورسيير) من غياب الامير ليبسط سيطرته على (مدينة معسكر) وليوسع عملياته في اتجاه الصحراء، بعد ان نجح في اخضاع الكثير من القبائل- بمن فيهم قبائل بنو هاشم- قبيلة الامير نفسه- فانتقل الامير بسرعة، وعالج الموقف بمزيج من القسوة المتناهية والتسامح غير

المحدود تبعاً لمعرفته لمن خضع كرهاً أو خيانة للافرنسيين، فأمكن له بذلك استعادة السيطرة على الموقف. وهكذا استمر الصراع المرير على كافة الجبهات والذي اخذ شكل اشتباكات دموية عنيفة في بعض الاحيان. ونظراً لما كانت تتعرض له القبائل العربية- وخاصة النساء والاطفال- فقد اضطر الامير لتطوير (الزمالة) حتى اصبحت عاصمة ضخمة متنقلة تتبع حركة الامير في تقدمه وتراجعه. ولم تلبث هذه الزمالة ان تحولت لاداة فعالة في قبضة الامير لمنع القبائل من التأرجح بين الخضوع للافرنسيين، وبين الولاء للامير. فعندما كان الافرنسيون يقدمون الاغراءات لرجال القبائل بقولهم: «هلموا الينا فاننا سنحميكم» كان هناك صوت خفي يهمس في آذانهم قائلاً: «ان لدي نساءكم واطفالكم وقطعانكم فاحذروا». واصبحت (الزمالة) نتيجة ذلك هي الهدف الاول للافرنسيين. حيث تركزت هجمات الربيع لسنة ١٨٤٣ من اجل مطاردة الزمالة. وقد استطاع الامير احباط هجومين قام بهما (لامورسيير) غير ان (دومال) نجح في الاغارة على (الزمالة) يوم ١٦ ايار- مايو- ١٨٤٣ بمساعدة خائن (هو عمر العيادي ابن فراح). وكانت غنائم الافرنسيين كبيرة. بقدر ما كان وقع الكارثة مفزعاً للعرب. وعندما بلغ الامير الخبر (وهو في غابة سرسو) أظهر تجلده للنكبة، رغم انه فقد فيها كل ثروته المالية وبجوهراته ومكتبته التي جهد في جمعها، فقال لاولئك الذين كانوا ينتظرون كلمته: «الحمد لله- ان كل تلك الاشياء التي كنت اقدرها حق قدرها والتي كانت عزيزة على قلبي، والتي شغلت عقلي كثيراً، لم تزد على أن أعاقت حركتي وحولتني عن الطريق الصحيح. اما في المستقبل، فسأكون حراً في محاربة الكفار» وكتب الى خلفائه: «قام الافرنسيون بالإغارة على الزمالة. ولكن علينا ان لا نفقد الشجاعة وسنكون منذ

الان اخف حملاً وافضل استعداداً للحرب.»

كانت صدمة (الزمالة) قوية الوقع على الأمير، وصفها بقوله: «كنت قرب (تاقدامت) أراقب الحامية الافرنسية القريبة مني (بوهران)، عندما قام الافرنسيون بهجومهم المباغت على (الزمالة). كان معي (١٥٠٠) فارس، وكان (ابن خروب) مع فليته، وابن علال في الونشريس، ومصطفى بن التهامي بين بني ورغة، ولم اكن ابداً أتوقع نكبة كالتي حدثت من جهة (المدية) ولم يكن أحد من خلفائي يراقب تحركات ابن الملك (دوفال). ولكن رغم ذلك كله، لم نكن لنباغت بالحادث لو ان الله لم يطمس عيون شعبنا. فقد اعتقد أهل الزمالة، عندما رأوا جنود ـ الصبائحية ـ متقدمين ببرانسهم الحمراء، أن هؤلاء هم جنودي غير النظاميين عائدين، بل ان النساء قد رفعن اصواتهن بالزغاريد ترحيباً واحتفاء بهم، ولم يشعرن بخيبة الأمل الا بعد اطلاق النار، ثم تلا ذلك اضطراب لا يوصف شل جميع جهود الذين حاولوا الدفاع عن أنفسهم. ولو كنت حاضراً لكان علينا أن نحارب من أجل نسائنا وأطفالنا، ولعاش الافرنسيون يوماً لن ينسوه، ولكن الله اراد غير ذلك، ولم اسمع بالنكبة الا بعد ثلاثة ايام من حدوثها، وكانت الفرصة عندئذ قد ضاعت».

كانت قوة الافرنسيين التي قامت بالاغارة قليلة، لهذا لم تتمكن من اقتياد اكثر من (٣) آلاف اسير، كان من بينهم عدد من عائلات كبار الضباط والقادة في جيش الامير، ولم تكن (نكبة الزمالة) اكثر من بداية لصراع مرير وقاس على كل الجبهات، وأصبح اقليم وهران مسرحاً للاشتباكات الدموية المستمرة، ولم تتوقف القوات الافرنسية من مطاردة الامير، وتمكنت في يوم ٢٢ ايلول ـ

سبتمبر ـ ١٨٤٣ من مباغتته عندما كان معسكراً بالقرب من زاوية المرابط (سيدي يوسف) وقد صحا الامير على صرخات (الافرنسيين ـ الافرنسيين). وكان لا يجد الوقت حتى لامتطاء فرسه، غير انه لم يفقد رباطة جأشه وهو في أشد ساعات الضيق. فأخذ في اطلاق النار وأسرع جنده الى اسلحتهم، واخذوا في التجمع حوله تقودهم صيحاته الحادة، وأمكن له تمزيق الافرنسيين والخروج بجنده وأهله. ومضى (بزمالته) التي لم تعد تضم اكثر من الف نسمة، ليجوب بها الأرض في شقاء ويأس. وتبع ذلك قتال مرير، وكانت النسوة تحمس المحاربين بالزغاريد والاهازيج. وكان عبد القادر ورجاله يحاربون على مرأى ومسمع من زوجاتهم واطفالهم، فابدوا شجاعة لا توصف. وامكن للامير بذلك قيادة الزمالة الصغير بأمان الى (بوك شبكة) على حدود المغرب الاقصى. أما (بيجو) فقد كتب الى حكومته: «بعد حملة الربيع ١٨٤٣، كان باستطاعتي ان أعلن بان احتلال الجزائر واخضاعها قد انتهى. غير أنني فضلت ان اذكر ما هو أدنى من الحقيقة، ولكني الان، وبعد معركة ١١ ـ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ والتي قضي فيها على بقية مشاة الامير وقتل فيها أول وأشهر خليفة له (ابن علال) فاني اعلن على الملأ وبكل جرأة، ان كل قتال جدي قد انتهى، حقاً ان عبد القادر قد يقوم بحفنة الفرسان الذين ما يزالون معه، ببعض الحركات المباغتة المعزولة على الحدود، ولكنه لن يحاول ابداً القيام بأية حركة هامة من جديد».

٩ـ على حدود المغرب

(١٨٤٥ م)

اتخذ الأمير عبد القادر من حدود المغرب قاعدة لغزواته في الجزائر لفترة من الوقت، ثم ينسحب الى الأرض المغربية مما دفع القوات الافرنسية لزج فرقة عسكرية ضخمة بقيادة (لامورسيير) لاحتلال الجزء الذي ينطلق منه الامير عبد القادر، ولم يكن خط الحدود الجزائرية ـ المغربية محدداً بدقة. واختار (لامورسيير ـ وبيدو) مقراً لهما في زاوية حملت اسم (لاللامغنية) وهي امرأة مرابطة اشتهرت بورعها وتقواها. (ولا يزال هناك ضريح اقيم لها رسمياً في المكان ذاته) وفي (لاللامغنية) حفر الافرنسيون خنادقهم، وعلقوا معداتهم وغنوا اغانيهم، واهرقوا خمورهم، وعربدوا عربدتهم، فكان في ذلك تدنيس لحرمة المكان المحترم، وانتهاك مثير ووحشي لمشاعر المسلمين. وانطلقت صرخة الغضب فترددت لها اصداء قوية في كل المغرب الاسلامي. مما دفع سلطان المغرب (سيدي عبد الرحمن) لتوجيه جيش بقيادة القائد (القناوي) الذي كان شريفياً متعصباً مرتبطاً بالدم مع عائلة السلطان. وطلب القناوي من الافرنسيين الجلاء عن (لاللامغنية) يوم ٢٢ ايار ـ مايو ـ ١٨٤٤. غير ان الافرنسيين سخروا من هذا الطلب وفي يوم ٣٠ ايار (مايو) تقدم الجيش المغربي، واشتبك

مع الافرنسيين في معركة قصيرة وحاسمة وارغمهم على الانسحاب.

وعاد (بيجو) يوم ١١ حزيران ـ يونيو ـ في محاولة للتفاهم مع (القناوي) غير ان هذه المحاولة فشلت، وبعدئذ وجه (بيجو) انذاراً خطياً الى (القناوي) جاء فيه: «نرغب ان تكون لنا نفس الحدود التي كانت للاتراك ثم لعبد القادر، اننا لا نريد ان نأخذ منكم شيئاً. ولكن يجب ان نصر على عدم إيواء عبد القادر بعد اليوم، وان لا تمنحوه المساعدة أو التأييد، وان لا تدعموه بعد ان أوشك على الهلاك ثم تطلقوه ضدنا من جديد. ان عملاً كهذا ليس من الصداقة في شيء، اننا نخوض حرباً، وانكم كنتم تقومون بالحرب ضدنا على هذا المنوال منذ سنتين. اننا نطلب منكم ان تحصروا دائرة عبد القادر وكبار مساعديه في غرب الدولة، وان تفرقوا جيشه النظامي، المشاة منه والفرسان، ونطلب منكم ايضاً ان ترفضوا منذ الان السماح بهجرة قبائلنا الى مناطقكم، وان تعيدوا الينا حالاً اولئك الذين لجؤوا اليكم. واننا نلزم انفسنا بالمعاملة بالمثل تجاهكم فيما اذا حدث مثل ذلك بالنسبة الينا. وهذا ما يمكن تسميته حقاً التطبيق العملي لمبدأ الصداقة الحقيقية بين أمتين. وبهذه الشروط سنكون اصدقاءكم، وسنشجع تجارتكم، وسنكون الى جانب حكومة مولاي عبد الرحمن بقدر ما نستطيع أما اذا تصرفتم غير ذلك فسنكون اعداء لكم. فأجب في الحال وبدون تملص لانني لا أفهمه»

لم يأت هذا الانذار بنتيجة تذكر، وتراجع الجيش المغربي الى داخل البلاد، واحتل (بيجو) مدينة (وجدة) بصورة مؤقتة، وتطور الصراع على الحدود. فأرسلت الحكومة الافرنسية قطعة من اسطولها

الى الساحل المغربي بقيادة (دوجوانفيل)[1] في شهر حزيران (يونيو) ١٨٤٤ لتدعيم مطالبها الرسمية. وتلقى المارشال (بيجو) في الوقت ذاته تعليمات للبدء بعملياته الهجومية البرية واضطر السلطان (عبد الرحمن) للرضوخ لمطالب الافرنسيين بعد قصف طنجة وموقادور بقنابل الاسطول، وبعد معركة (ايلسلي)[2] وفرضت معاهدة الصلح على السلطان فرضاً، وتضمن البند الرابع منها. «يعتبر عبد القادر خارجاً على القانون في جميع انحاء الدولة المغربية وفي الجزائر. ونتيجة لذلك، ستطارده القوات الافرنسية من الجزائر والقوات المغربية من المغرب، الى أن يطرد من هناك، أو يقع في قبضة قوات احدى الدولتين. ففي حالة وقوع عبد القادر في أيدي القوات الافرنسية، تتعهد حكومة جلالة ملك فرنسا أن تعامله باحترام وكرم. وفي حال وقوعه في أيدي القوات المغربية يتعهد جلالة سلطان المغرب باجباره على الاقامة، مستقبلا، في احدى مدن الساحل الغربي لدولته، الى ان تتوصل الحكومتان الى اتخاذ اجراء يمنعه من استئناف القتال، وتعكير الهدوء في الجزائر والمغرب».

انسحب الامير عبد القادر بعيداً في جوف الصحراء، غير ان المعاهدة المفروضة استثارت غضب المسلمين في المغرب كله، ووصلت الى الامير رسائل من كل المستويات تطالبه بقيادتها للاطاحة بالسلطان، غير ان الامير رفض استثمار هذا الموقف الذي يضعف

---

(١) دوجوانفيل: (PRINCE DE . JOINVILLE - FRANçOIS DE BOURBON - ORLEANS) اميرال افرنسي - من مواليد نويي (NEUILLY) (١٨١٨ - ١٩٠٠) الابن الثالث للملك لويس فيليب. (شقيق دومال الذي سبق ذكره).

(٢) ايسلي: ISLY نهر مشترك بين الجزائر والمغرب، يرفده نهر تافنة من يساره.

المغرب بدلاً من تقويته، ومضى يستثير حماسة القبائل في الجزائر، متنقلاً باستمرار، من (تيارات) في أقاليم التل حتى الحدود المغربية. وكانت مطاردة الإفرنسيين له لم تتوقف. وفي لحظة اليأس وصلته رسالة من خليفته (ابن سالم) يعلمه بقدومه إليه عندما تتوافر له ظروف مناسبة. واثناء ذلك عقد خلفاء الأمير الثلاثة في الشرق الجزائري وقرروا المضي في جهادهم، ومما قاله (ابن علال) لإخوته في الجهاد وهو يعانقهم ويقبلهم مودعاً: «ليجمعنا الله في الآخرة، لأنني ضعيف الأمل باجتماعنا من جديد في هذه الدنيا» فاجابه ابن علال: «قد يكون ذلك صحيحاً اذا استسلمنا للمسيحيين، وهو أمر حرمه الله علينا».

يصور ذلك الوضع الذي كانت عليه الجزائر، في الوقت الذي مضت فيه السلطة الاستعمارية بالمطاردة الأمر الذي زاد على قدرة احتمال القبائل، فانفجر الموقف في آذار (مارس) ١٨٤٥ بقيادة محمد ابن عبد الله- الملقب بو معزة- من مشايخ (الدرقاوه). ورفع (بو معزة) لواء الجهاد في منطقة الظهرة وسهل الشلف. وعلى الرغم من ان قوة- بو معزة- لم تتجاوز المئات فقد كانت شرارته هي التي احرقت السهل، اذ اندلعت المقاومةفي كل مكان (باسم بو معزة). وافاد الامير من هذا الموقف، فقاد قواته التي بقيت مخلصة له الى سهل (تافنة) فدمر الحامية الافرنسية في (سيدي مخلصة). واستسلمت له كتيبة كاملة (من ستمائة جندي) في (تموشنت). وشعرت فرنسا بالخطر المتعاظم. فاعادت (بيجو) الى الجزائر، ودعمته بقوات جديدة حتى بلغ عدد القوات الافرنسية في الجزائر (١٢٠) الفا ووصل بيجو الى مسرح العمليات يوم ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٥ وتولى قيادة (١٤) فرقة. وطبق اسلوب (الطابور الجهنمي) الذي يعتمد على الابادة

للسكان واحراق الأرض والزرع والقرى. وخاض الامير عبد القادر صراعاً مريراً ضد ارتال القوات الافرنسية، ونجح في احراز عدد من الانتصارات كاد في بعضها ان يسحق رتلا كاملاً من ارتال القوات الافرنسية في كانون الاول - ديسمبر - ١٨٤٥ م.

وأصبح لزاماً على الامير عبد القادر أن يخوض صراعاً مريراً على ثلاث جبهات: الجبهة الداخلية المتداعية تحت ضربات الافرنسيين المدمرة، وعلى جبهة الصراع ضد الافرنسيين، وعلى جبهة المغرب، وكان هذا الصراع يتطلب امكانات ضخمة، في حين انقطعت عنه كل الموارد بعد ان نجحت فرنسا في عزل الجزائر عن جناحيها (تونس والمغرب). وباتت الحلقات تضيق حول الامير حتى كاد يسقط في قبضة اعدائه عدة مرات (منها ما حدث له يوم ٧ شباط - فبراير - ١٨٤٦ عندما بوغت في منتصف الليل بقوات الافرنسيين وهي تحيط به، ولم تنقذه الا شجاعته من هذا المأزق).

استمر عبد القادر بقيادة هذا الصراع المرير على امتداد عامين، وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٧ وقف مع القوات المتبقية لديه (٥) آلاف مقاتل في (اقدين) دائرة معسكره على الضفة اليسرى لنهر (ملوية) واعاد تقدير موقفه، كان شارداً عن كل ما حوله يسير على رأس قوته تتبعه (الزمالة) التي اوهنها الحل والترحال، وزاد من ارهاقها غضب الطبيعة التي ارسلت امطارها كالسيول، ووقف الامير فجأة، وطلب الى رجاله الاقتراب منه. لقد اتخذ قراره، وها هو يترجم على رجاله الذين اخذتهم مهابته: «هل تذكرون القسم الذي اقسمتموه قبل ثمانية اعوام في المدية عند استئناف الحرب... انني دائما كنت اعتبر ذلك القسم ملزم لي نحوكم، كما هو ملزم لكم تجاهي. ان هذا

الشعور وحده هو الذي جعلني اتابع حمل راية الجهاد في سبيل الله حتى اليوم . فاذا كنتم تعتقدون انه ما زال بوسعي ان اقوم الان بأي شيء فاخبروني. وان كنتم لا تعتقدون ذلك فاني اسألكم ان تعفوني من القسم الذي التزمت به تجاهكم» واجابه الجميع بصوت واحد، «اننا جميعاً نشهد أمام الله انكم فعلتم كل ما في وسعكم لاعلاء كلمته، وسيجزيكم الله بعدله يوم القيامة» وقاد الامير الحديث من جديد: «واذا كان هذا هو رأيكم، فامامنا ثلاثة احتمالات: امًا العودة الى الدائرة حيث نكون مستعدين لمواجهة اية عقبة، واما محاولة ايجاد طريق الى الصحراء. وفي هذه الحالة لا تستطيع النساء والاطفال والجرحى ان يتبعونا، وسيسقطون لا محالة في ايدي العدو، واما الاستسلام» فاجابوه: **«ليهلك النساء والأطفال، اهلنا واهلك، ما دمت انت سالما وقادراً على متابعة الجهاد في سبيل الله. انك قائدنا وأميرنا، فحارب واستسلم كما تشاء، اننا سائرون وراءك الى حيث تقودنا»** ودار نقاش في معالجة هذا الوضع اليائس، وانتهى عندما اخرج الامير قطعة من الورق، ووضع عليها خاتمه، لقد كان المطر الغزير يعيقه عن الكتابة، فترك للفارسين المكلفين بنقل الرسالة الى القائد الافرنسي كتابة الشروط.

استقبل الجنرال (لامورسيير) **في ليل ٢١ كانون الاول ـ ديسمبر ـ فارسين ابلغاه رغبة الامير في الاستسلام.** فوافق على الفور غير انه لم يكن قادراً بدوره على الكتابة للسبب ذاته، **فالامطار** الغزيرة اعاقته عن الاجابة خطياً فأعطى سيفه، وخاتم الضابط (بازين)[1] الى المبعوثين

---

(١) بازين : (ACHILLE - BAZAINE) مارشال فرنسي- من مواليد فرساي (١٨١١- ١٨٨٨م) خدم في الجزائر، واشتهر في حرب (القرم). وأصبح قائداً اعلى للقوات الافرنسية في =

لتقديمها الى عبد القادر علامة على قبول شروطه.

افاد الامير من توقف المطر قليلاً، فكتب رسالة الى (لاموريسير) ضمنها شروطه، وعاد فأرسلها مع مبعوثيه. واثناء ذلك كان (لاموريسير) قد نقل الخبر الى (الدوق دومال) الذي اصبح حاكماً عاماً للجزائر. وكتب لاموريسير الى الدوق ما يلي: «كنت مضطراً ان التزم بتعهدات، انني فعلت ذلك وأنا على يقين ان سموك والحكومة ستوافقون على تعهداتي، اذا قبل الامير كلمتي. انني الان ممتط جوادي في طريقي الى الدائرة، وليس لدي الوقت لارسل لكم نسخة عن الرسالة التي وصلتني من الامير أو نسخة من جوابي عليها. ويكفيني ان اذكر بانني وعدت ووافقت على ان يؤخذ الامير وعائلته الى عكا او الاسكندرية، ولم اذكر سوى هذين المكانين، وهما اللذان ذكرهما في مطلبه واللذان قبلتهما».

غادر الامير قرية (تريرات) صباح يوم ٢٣ كانون الاول - ديسمبر - تتبعه مجموعة من قادته واتباعه الذين ارتضوا لانفسهم مشاركته رحلة العمر الشاقة، حتى اذا ما وصل الى زاوية المرابط (سيدي ابراهيم) استقبله العقيد (مونتوبان) على رأس قوة من (٥٠٠) فارس، وأدى له المراسم كرئيس دولة. وبعد استعراض حرس الشرف، طلب الامير السماح له باداء الصلاة في الزاوية واستجاب القائد الافرنسي لطلبه، فترجل عن فرسه. وبوصوله الى الزاوية نزع

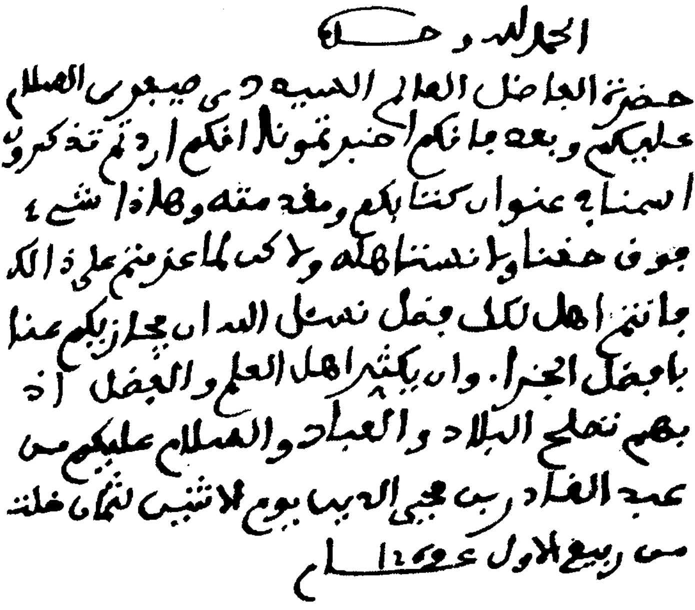
- المكسيك. وكلف سنة ١٨٧٠ بقيادة جيش اللورين ضد بروسيا، غير انه اضاع المبادأه مما سمح للقوات البروسية بتطويقه في ميتز. وحكم عليه بالموت سنة ١٨٧٣ لتقاعسه، غير انه استطاع الهرب الى اسبانيا وقضى بقية حياته في (مدريد).

سيفه، وسلمه الى احد المرافقين له. وبعد ساعة قضاها الأمير في الصلاة، خرج فتابع رحلته. ووصل في السادسة مساء الى (جامع الغزوات) حيث اتخذه الدوق دومال مقراً له. وعندما تمت المقابلة بحضور القادة الافرنسيين، قال الامير للدوق «ان الجنرال ـ لامورسيير) قد اعطاني وعداً، واني اثق به كل الثقة، ولست اخشى ان يخلفه ابن ملك عظيم مثل ملك الافرنسيين» أقام (الدوق دومال) عرضاً للقوات الافرنسية في الجزائر، في اليوم التالي، ووقف الامير الى جانب الدوق، وعند انتهاء العرض، قدم الامير للدوق جواده، وقال له: «انني اقدم اليك هذا الجواد الذي هو آخر جواد امتطيته، لقد كان جوادي المفضل، ولكن يجب ان نفترق الان» واجابه الدوق: «انني اقبله باعتباره اكراماً لفرنسا، البلد الذي ستمتد حمايته اليك منذ الان وعلامة على ان الماضي قد نسي».

وركب الامير وعائلته ومرافقيه واتباعه (ومجموعهم ثمانية وثمانين شخصاً) السفينة (إسمودس) يوم ٢٥ كانون الاول ـ ديسمبر ـ ١٨٤٧ م. واتجهت السفينة الى طولون. وباعت فرنسا كل ممتلكات الامير وحقائبه وخيامه وجياده وبغاله وإبله، بمبلغ (٦) آلاف فرنك، ولكن حتى هذا المبلغ التافه لم يقدم له الا على شكل صدقة وبالتقسيط.

وعمت فرنسا انباء استسلام الامير، فاستقبل الافرنسيون (شعبا وحكومة) ذلك بفرح طاغ وبهجة عارمة، لقد اصبحت الجزائر الان (مستعمرة فرنسية). واصبح باستطاعة فرنسا الان سحب (مائة الف جندي) لاستخدامهم حيث تتطلب الحاجة.

خرج السيف من غمده، وغادر الامير ارض الأباء والأجداد، وودع السلاح، مستسلمًا لقدره بايمان ثابت، وعزيمة صلبة ليجابه الصعاب على امتداد سنوات العمر.


الحمد لله وحده
حضرة الفاضل العالم السيد دي صيفري السلام
عليكم وبعد فانكم اخبرتمونا انكم اردتم تذكرون
اسمنا في عنوان كتابكم ومقدمته وهذا شيء
فوق حقنا ولا نستاهله ولكن لما عزمتم على ذلك
فانتم اهل لذلك وفضل نسأل الله ان يجازيكم عنا
بافضل الجزاء وان يكثر اهل العلم والفضل اذ
بهم تصلح البلاد والعباد والسلام عليكم من
عبد القادر بن محيي الدين يوم الاثنين لثمان خلت
من ربيع الاول عام ١٢٦٨

رسالة بخط الأمير إلى العالم دي سيفري في ١٨٥٢

١٠ـ وداعاً يا جزائر الاحرار
(١٨٤٨ـ ١٨٥٢)

الامير في سجون فرنسا

وداعاً يا جزائر الاحرار! وداعاً يا جزائر المسلمين المجاهدين الصابرين!

ومضى الامير، وما كاد يصل (طولون) حتى وجد نفسه وعائلته وحاشيته في القيود، لقد فرضت فرنسا عليهم الاقامة في قلعة (لامالق). واحتج الامير، فعرضت عليه فرنسا اختيار البقاء في فرنسا ومنحه قصراً لاقامته وحاشيته، غير ان الامير رفض كل العروض والاغراءات. لقد كان يفضل البقاء في ديار الاسلام عن كل كنوز اعدائه وثرواتهم. ولم تمض عليه فترة طويلة في سجنه حتى بلغته اخبار انهيار (ملكية لويس فيليب) في ٢٨ شباط ـ فبراير ـ ١٨٤٨ م. وعرف ان الضمانات التي قدمت له قد زالت بزوال الحكم الذي تعهد له بها، على الرغم من غدر هذا الحكم بما تعهد به. فكتب (الامير من سجنه) الى الحكومة المؤقتة للجمهورية. منددا بما لحق به من غدر. فكان كل ما فعلته حكومة الجمهورية ان نقلته الى قصر (هنري الرابع) في مدينة (بو)[1] والتي وصلها الامير يوم ٢٠ نيسان ـ ابريل ـ ١٨٤٨م. وكان

(١) بو: (PAU) عاصمة اقليم بيارن (bearn) في البيرينه السفلى (BASSE-PYRNEES) تقع على نهر الكاف، وهي الى الجنوب الغربي من باريس وعلى بعد (٧٦٠) كيلومتراً منها.

يتردد على الامير في هذه المرحلة بعض القادة الافرنسيين والاساقفة، وقد اذهل الامير جميع زواره بثباته، رغم ما نزل به من البلاء بفقد اعز الناس لديه (ابنه وابنته وابن اخيه) الذين قضوا حياتهم بين يديه، وكان الامير يمضي وقته بالعبادة صابراً محتسباً متجلداً. صلباً كجبال الاوراس، غير أن هذه القسوة كانت تنهار لدى تذكر اولئك - اخوان الجهاد- الذين سقطوا فوق ثرى الجزائر الطهور، وهم يرفعون راية الجهاد في سبيل الله، فترقرق عيون الامير بالدمع لتذكرهم. وحاول الافرنسيون فصل الامير عن حاشيته واتباعه، غير أن هؤلاء هددوا بالموت ان هم أبعدوهم عن اميرهم. أصبح (لامورسيير) وزيراً للحربية الافرنسية في (حزيران - يونيو - ١٨٤٨) وكتب له الامير مذكراً بوعده الشخصي، علاوة على ما يجب ان يلتزم به من الشرف باعتباره ممثلاً لفرنسا. وفي حالة من حالات اليأس، فكر اتباع الامير بعملية انتحارية للموت من اجل اثارة قضية الامير، وذلك بالتصدي للحرس المسلح، وخوض الصراع معه، وعلم وزير الحربية بذلك، فقرر نقل الامير وحاشيته الى (قصر امبواز)[١] وتم ذلك يوم ٢٢ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٨٤٨ م. وصعد (لويس نابوليون) الى عرش فرنسا، وبعد ٢٤ يوم من انتخابه، تم عقد مؤتمر لمناقشة قضية الامير عبد القادر (يوم ١٤ كانون الثاني - يناير - ١٨٤٩) ووقف نابوليون الثالث الى جانب طلب الامير في الافراج عنه، والسماح له بالتوجه الى البلد الذي يريد، غير ان (الجنرالات) عارضوا ذلك. وارسل (بيجو)

---

(١) امبواز: (AMBOISE) مدينة في دائرة (تور) مقاطعة (ايندر واللوار) تقع على نهر اللوار بها ولد ومات شارل الثامن. وقد استخدم قصره لاقامة الامير عبد القادر (١٨٤٨-١٩٥٢).

رسالة الى الامير يقترح فيها على الامير البقاء في فرنسا واعتبارها وطناً له. غير ان الامير عاد فرفض هذا العرض مفضلاً السجن على (الاستمتاع بمباهج فرنسا وطبيعتها الجميلة- وفقاً لما اقترحه بيجو)، وظهر ان اقامة الامير في سجن (امبواز) ستكون طويلة، واسلم الامير امره لربه، ومضى في عبادته وفق نظام دقيق اختطه لنفسه، واثناء هذه الفترة انجز مؤلفيه (وحدانية الله) و(ذكرى العاقل وتنبيه الغافل).

ومضت الايام متثاقلة. حتى اذا ما اقبل يوم ١٦تشرين الأول- اكتوبر- ١٨٥٢ م وصلت الى الأمير رسالة من نابوليون شعرمنها الأمير بقرب الافراج عنه. وتوجه الامير الى (باريس) في ٢٨ تشرين الثاني - اكتوبر حيث اجريت له استقبالات شعبية ورسمية. وقام بزيارة عدد من الاماكن التاريخية والاثرية (الاوبرا، وكنيسة سانت كلود) **وهناك قدمت الى الامير ورقة مكتوبة - يلتزم فيها الامير بوعد خطي الا يعود لحمل السلاح. وجاء فيها«الحمد لله وحده،ادام الله حفظهورعايته على مولانا لويس نابليون، وهداه وأرشده في احكامه وحكمه. ان الذي يقدم اليك نفسه هو عبد القادر بن محيي الدين، لقد جئت لسموك لاشكرك على افضالك ولامتع نفسي بالنظر في طلعتك. انك في الحقيقة اعز علي من أي صديق آخر، لأنك غمرتني بفضل يتجاوز قوة الشكر لك عندي. ولكنه جدير بنبل شخصك وعظمة مكانتك. فرفع الله قدرك.** انك لست من اولئك الذين يقيمون اعتراضات بلا طائل، أو يخيبهم الرياء والنفاق. لقد وضعت ثقتك فيّ، ولم تصغ الى الذين لا يثقون بي. لقد منحتني الحرية، وانجزت تعهدات كان الاخرون قد التزموا بها دون ان ينجزوها. بل انك فعلت ذلك دون ان تأخذ مني اي وعد. انني اذن جئت لاقسم لك بالله العظيم، وبكل الانبياء والرسل، ان لا أفعل شيئاً يتنافى مع الثقة التي وضعتها فيّ،

وعلي ان التزم بهذا القسم التزاماً دينياً بان لا أعود أبداً الى الجزائر. فعندما أمرني الله بالنهوض، نهضت، وقد استعملت البارود الى أقصى حد مكنتني منه وسائلي وطاقتي. ولكن عندما أمرني بالتوقف توقفت، وعند ذلـك فقط تخليت عن السلطة واستسلمت.

ان ديني وشرفي يأمرانني بالاحتفاظ بقسمي، ويستنكران الحنث. انني شريف، وليس هناك من سيتهمني بالخيانة. وكيف يمكن ان يقع ذلك مني بعد ان نلت افضالاً عظيمة على يديك. ان الاحسان سلسلة ذهبية تطوق عنق الانسان النبيل. انني أغامر بان آمل ان ستتفضل بالتفكير فيَّ حتى عندما اكون بعيداً عنك، وانك ستضعني في قائمة اصدقائك المقربين، لانني وان كنت قد لا أساويهم خدمة لك، فانني على الاقل اساويهم في حبهم لك، ضاعف الله من حب اولئك الذين يحبونك، وصعق قلوب اعدائك»

ورد لويس نابليون على ذلك بقوله:

«يا عبد القادر، انني لم افقد فيك ثقتي ابداً، وليس لي حاجة الى هذه الورقة المكتوبة التي تفضلت بتقديمها إليَّ بكل نبل، انني لم أطلب منك ابداً، كما تعلم، وعداً أو قسماً. ومع ذلك فقد اخترت ان تكتب، وان تقدم بين يدي هذه الوثيقة. انني اقبلها. ان هذا الاقرار العاطفي منك وشعورك نحوي قد برهن لي على انني كنت على حق عندما وضعت فيك ثقتي غير المحدودة»

امضى الامير عبد القادر بعد ذلك اياماً في زيارة معالم باريس (فرساي، كنيسة المادلين، الانفاليد) كما زار المستشفيات، وزاره الوزراء ورجال الدين المسيحي، وكبار القادة، والضباط الذين كانوا

اسرى لديه ثم اطلق سراحهم، (بصورة خاصة اولئك الذين تم اطلاق سراحهم في ٢١ ايار ـ مايو ـ سنة ١٨٤١ في (سيدي خليفة) وهو التبادل الشهير الذي تم بناء على وساطة اسقف الجزائر (دوبوش) وعندما جرى انتخاب لويس نابليون امبراطوراً لفرنسا يوم ٢١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٥٢ طلب الامير اعطاءه حق الانتخاب، فادلى بصوته، واشترك في احتفالات التنصيب (في التويلري) ثم جاء يوم ٢١ كانون الاول ـ ديسمبر ـ ١٨٥٢، وفيه صعد الامير وحاشيته السفينة (لابرادور) التي اقلتهم الى (صقليا) ومنها الى اسطنبول، حيث وصلها يوم ٧ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٨٥٣. واقيمت احتفالات لاستقبال الامير، وزاره وزراء الدولة ثم انتقل بعد ذلك الى جزيرة (بروسة) فاقام فيها ثلاث سنوات، وحينها تعرضت للزلزال الشهير (سنة ١٨٥٥) أظهر الامير رغبته في الانتقال الى دمشق، حيث وصلها في نهاية تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٥٦.

فتحت (دمشق) عاصمة المسلمين وقاعدة مجد الامويين ذراعيها للامير، واحتضنته كسيف من اشهر سيوف الاسلام. وكانت قد استقبلت افواج المجاهدين المسلمين الذين رفضوا البقاء تحت حكم (الكفار) فوجدوا في دمشق غايتهم، واقاموا في حي مستقل بهم عرف بحي المغاربة. وجمعت دمشق شمل السيوف، وضمت الأهل الى الأهل.

مضى الامير لممارسة حياته العادية. واختار من مسجد بني امية قاعدة له، فكان يمضي فيه معظم وقته في تدارس العلم مع العلماء وطلبة العلم، وأحب الامير دمشق بقدر ما احبته وفتح لها قلبه بقدر ما فتحت له قلبها.

أثناء ذلك كانت بلاد الشام تتمخض عن احداث مثيرة (فقد كان الانكليز يبسطون حمايتهم على الدروز بعد ان شملت فرنسا النصارى بحمايتها بينما اخذت روسيا على عاتقها حماية الكنيسة الارثوذكسية) واخذت هذه الدول في تسليح الطوائف التابعة لها وتحريضها على التمرد والثورة. الامر الذي انتهى بما هو معروف شعبياً باسم (طوشة النصارى) التي انفجرت في ايار ـ مايو ـ ١٨٦٠. واذ ذاك، دفع الامير فرسانه المسلحين لحماية النصارى من الدروز، وامكنه خلال ايام الفتنة العشرة حماية الالاف منهم (بما في ذلك قناصل الدول الاجنبية).

لقد أمنت فرنسا للامير دخلاً يكفيه له ولعائلته واتباعه (اربعة آلاف جنيه استرليني سنوياً). واستخدم الامير فائض هذا المبلغ على المعوزين وفي سبيل العلم، حيث حرص على جمع اكبر قدر من المخطوطات القديمة التي حرصت دمشق دائماً على اقتنائها وحفظها. وها هو الان يحظى بتكريم كل الدول المسيحية التي اعترفت بجميله فأرسلت اليه أرفع الاوسمة لقاء ما قدمه من خدمات في حماية المسيحيين الذين كان يحاربهم بالأمس كمستعمرين وهو ينقذهم اليوم (كذميين) في حماية الاسلام «وبلغ عدد من انقذهم الامير ـ ١٥ ـ الفاً».

غادر الامير عبد القادر دمشق ـ بعد الحصول على تصريح من نابليون الثالث ـ في سنة ١٨٦٣ للقيام بالحج. واستقبله شريف مكة بما هو أهل له من التكريم واقام حجتين مجاوراً، ثم غادر الديار المقدسة عائداً الى بلاد الشام. وتوقف بالاسكندرية في حزيران ـ يونيو ـ ١٨٦٤ م.

كانت الماسونية في تلك الفترة في اوج نشاطها، غير انها لم تكن معروفة الاهداف، وكانت تسعى لضم كبار القوم حتى تكتسب زخماً معنوياً. وفي مساء يوم ١٨ حزيران- يونيو- اقامت الجمعية الماسونية في الاسكندرية حفلاً كبيراً للترحيب بالعضو الجديد الشهير. ودعى المحفل الماسوني «المعروف بمحفل الاهرام» كبار اعضائه للاحتفال بهذه المناسبة، واضيفت صفة «مجاور النبي» الى جوار عبارة «ماسوني حر ومقبول». وعاد الى دمشق فوصلها في نهاية شهر تموز - يوليو - ١٨٦٤. بعد أن انهى تسجيل ارض منحه اياها والي مصر.

وصل الامير عبد القادر الى مبتغاه، جمع خير الدنيا والآخرة، فمضى يتابع رحلة العمر وقد اثقلت السنون كاهله، فتفرغ للعبادة والعلم، واشرف على اهله وعشيرته، وقضى بقية حياته في مثافنة العلماء، وإسداء الخيرات، وكان كل يوم يقوم الفجر، ويصلي الصبح في مسجد قريب من داره في حي (العمارة) لا يتخلف عن ذلك الا لمرض، وكان يتهجد الليل. ويمارس في رمضان الرياضة على طريقة الصوفية. وما زال مثالا للبر والتقوى حتى توفي رحمه الله في سنة ١٨٨٣، فدفن بمقام الشيخ محيي الدين بن العربي. وترك من الامراء محمد باشا، ومحيي الدين باشا والهاشمي وابراهيم وأحمد وعبد الله وعلي وعبد الرزاق وعبد المالك. فالامير محمد ومحيي الدين انتقلا الى الاستانة وجعلتهما الدولة في مجلس الاعيان الى ان توفيا، وكان الثاني منهما (محيي الدين) شاعرا اديبا، عالي الهمة، وذهب سنة ١٨٧٠ بدون علم ابيه الى الجزائر للاشتراك في ثورة المقراني والحداد (ثورة القبائل) فلما بلغ الخبر اباه اعلن سخطه عليه لان الامير بعدما اعطى عهده لفرنسا حافظ على قوله الى الممات. واما الهاشمي فمن ولده الامير خالد الذي تزعم الحركة الوطنية في الجزائر سنة ١٨٢٠. وكذلك

الامر بالنسبة لبقية الاخوة والابناء الذين تابعوا طريق الجهاد على سيرة الامير وخطاه.

وافاقت الجزائر على ثورة الفاتح من نوفمبر (١٩٥٤) وخاضت الصراع المرير حتى تم لها الاستقلال، ووقفت تبحث عن كل تراث الاجداد الذين بذلوا وضحوا في سبيل الله وفي سبيل الوطن الجزائري. ولم تنس رائدها الاول، ومؤسس دولتها. فطلبت الى دمشق إعادة (السيف الى غمده). وحملت رفاة الامير لتستقر الى جوار المجاهدين الابرار الذين مزقتهم سيوف الاعداء ـ فوحدتهم سيوف المجاهدين الاحفاد وأعادتهم الى ميادين جهادهم.

قـراءات

١ ـ معاهدة عبد القادر ـ دو ميشال (١٨٣٤ م)
٢ ـ معاهدة عبد القادر ـ بيجو (١٨٣٧ م)
٣ ـ من رسالة الامير عبد القادر الى ملك فرنسا لويس فيليب (١٨٣٩)
٤ ـ من رسالتين الى المارشال (١٨٤٠)
٥ ـ لوحة حضارية نقلتها فرنسا الى الجزائر (الارتال الجهنمية)



جندي من المشاة النظاميين التابعين لعبد القادر

(١)

معاهدة الأمير عبد القادر- دو ميشال

(٢٦ شباط- فبراير- ١٨٣٤ م)

ان الجنرال دو ميشال قائد القوات الافرنسية في اقليم وهران، وأمير المؤمنين سيدي الحاج عبد القادر بن محيى الدين قررا العمل بالشروط التالية:

المادة الاولى: يتوقف النزاع بين الافرنسيين والعرب ابتداء من اليوم، ويبذل القائد العام للقوات الافرنسية وأمير المؤمنين جهدهما، كل من جهته، لإحلال الود والاخلاص بين شعبين حكم الله عليهما ان يعيشا تحت نفس السلطة. ولهذا الغرض، سيرسل امير المؤمنين ثلاثة قناصل من جهته، احدهم الى وهران، وثانيهم الى ارزيو، وثالثهم الى مستغانم. وسيرسل الجنرال من جهته ايضاً قناصل الى معسكر لمنع النزاع بين الإفرنسيين والعرب.

المادة الثانية: ستكون عادات المسلمين وديانتهم دائما موضع الاحترام والحماية.

المادة الثالثة: يتم اطلاق سراح المساجين الافرنسيين فوراً، وكذلك المساجين العرب.

المادة الرابعة: ستكون السوق حرة ولن يعترض اي من الطرفين فيها طريق الاخر.

المادة الخامسة: يجب على العرب اعادة كل العسكريين الذين يفرون من عند الافرنسيين وتسليمهم الى السلطات الافرنسية. ومقابل ذلك يقوم الافرنسيون بتسليم العرب الذين يلجؤون اليهم فراراً من العقوبة عن مخالفة ارتكبوها، ويتم تسليم هؤلاء فوراً - في عين المكان - الى قنصل الامير في وهران او في أرزيو أو في مستغانم.

المادة السادسة. يحمل كل اوروبي يريد التنقل داخل البلاد جواز سفر عليه ختم قنصل الأمير وختم القائد العام للاقليم، حتى يكون حامل هذا الجواز محل احترام وحماية اينما حل في البلاد[1].

(كتبت هذه الشروط في اعمدة متوازية بالعربية والافرنسية ووقعها وختمها امير المؤمنين عبد القادر والقائد الافرنسي دو ميشال - في ٢٦ شباط - فبراير - ١٨٣٤ م).

(١) المرجع: حياة الأمير عبد القادر (شارل هنري تشرشل) ص ٧٨ - ٧٩ و ٣٠٠ - ٣٠١ وكذلك تاريخ الجزائر - مجاهد مسعود - ص ١٧٩.

(٢)

معاهدة الأمير عبد القادر- بيجو

(معاهدة تافنة)

٢٣ صفر ١٢٣ هـ= ٢٠ ايار- مايو ١٨٣٧م

ان اليوتنان جنرال بيجو قائد الجيوش الافرنسية في اقليم وهران، والامير عبد القادر، قد اتفقا فيما بينهما على الشروط التالية:

المادة الاولى: يعترف الامير عبد القادر بالسلطة الافرنسية في افريقية (في الجزائر).

المادة الثانية: تحتفظ فرنسا لنفسها في وطن بلاد وهران ومستغانم ومازغران ونواحيها (المحيطة) بوهران وأرزيو، ومنطقة اخرى محددة كما يلي: من الشرق بنهر المقطع والسباخ التي يجري فيها. ومن الجنوب بخط يبدأ من السباخ المذكورة ماراً بالضفة الجنوبية للبحيرة وممتداً الى وادي المالح في اتجاه سيدي سعيد، ومن هذا النهر الى البحر سيكون تابعاً للافرنسيين. أما في اقليم الجزائر فتعتبر منطقة إفرنسية: مدينة الجزائر والساحل وسهل متيجه (متوجة) محدوداً من الشرق بوادي القدرة (او الخضرة) الى قدام وقبله لحد رأس اول جبل حتى وادي شفة، وداخل في ذلك البليدة وسائر نواحيها، وغرباً من شفة الى المد المقابل لوادي مزغران (مازغنان) ومن هناك خط مساوي لحد البحر، ومتضمن في هذا الحد القليعة وكامل نواحيها.

المادة الثالثة: يحكم الامير اقليم وهران واقليم تيطري (المدية) والجزء الذي لم يقع النص عليه من الشرق في الحدود المذكورة في المادة الثانية من اقليم مدينة الجزائر. وليس له حق الدخول في اي جزء آخر من الولاية.

المادة الرابعة. ليس للامير اي سلطة على المسلمين الذين يرغبون في الاقامة في المنطقة التابعة لفرنسا. ولكن لهؤلاء حرية الانتقال منها والاقامة في المنطقة التابعة للامير. وفي نفس الوقت يمكن للسكان المقيمين في المناطق التابعة للامير ان ينتقلوا منها ويقيموا في المناطق الافرنسية .

المادة الخامسة: يتمتع العرب المقيمون في المنطقة الافرنسية بحرياتهم الدينية، ويمكنهم إقامة المساجد، وممارسة شعائرهم الدينية في كل خصوصياتها، تحت سلطة قضائهم ورجال دينهم.

المادة السادسة: يقدم الامير للجيش الافرنسي (٣٠) ألف مكيال من القمح و(٣٠) ألف مكيال من الشعير و (٥) الآف رأس من البقر. ويتم تسليم هذه المواد في وهران على ثلاث مرات اولها في ١٥ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٨٣٧ م. اما الباقي فبعد كل شهرين متتاليين.

المادة السابعة: يستطيع الامير ان يشتري من فرنسا البارود والكبريت والاسلحة التي يحتاجها.

المادة الثامنة: للكراغلة الذين يرغبون البقاء في تلمسان أو في غيرها، حرية التمتع باملاكهم هناك. وسيعاملون كمواطنين. اما اولئك الذين يرغبون في الانتقال الى المنطقة الافرنسية، فلهم ان يبيعوا او يؤجروا أملاكهم بحرية.

المادة التاسعة: تتخلى فرنسا للامير عن (راشقون ـ أورشقون) و(تلمسان وقلعتها) وكل المدافع التي كانت فيها قديماً. ويتعهد الامير بنقل كل الامتعة الى وهران. بالاضافة الى العتاد الحربي التابع للحامية الافرنسية في تلمسان.

المادة العاشرة: تبقى المبادلات التجارية بين العرب والافرنسيين حرة، ويمكن لكل طرف ان يقيم مبادلة في منطقة الاخر.

المادة الحادية عشرة: سيكون الافرنسيون محل احترام بين العرب، وكذلك العرب بين الافرنسيين. وتكون الاسلحة والاملاك التي اقتناها الافرنسيون، او التي يمكن لهم ان يقتنوها في المنطقة العربية مضمونة لهم. ويستطيعون التصرف بما يقتنونه ـ يمتلكونه ـ بحرية، ويتعهد الامير بتعويضهم عن أي خسارة قد سببها العرب لهم.

المادة الثانية عشرة: يتعهد الامير بعدم تسليم أي جزء من الساحل الى أية دولة أجنبية مهما كانت بدون اذن فرنسا.

المادة الثالثة عشر: يعاد المجرمون في كلتا المنطقتين مبادلة.

المادة الرابعة عشرة: لا تجوز المعاملات التجارية للولاية الا في الموانىء الافرنسية.

المادة الخامسة عشرة: تبقي فرنسا على ممثلين لها لدى الأمير، وفي المدن الخاضعة لسلطته حتى يعملوا كوسطاء لصالح الرعايا الافرنسيين. وللنظر في كل الخصومات التجارية التي قد تنجم بينهم وبين العرب. ويتمتع الامير بنفس الامتياز في المدن والموانىء الافرنسية.

كتب (برشقون) في ٢٦ صفر عام ١٢٥٣ هـ.
التافنة ـ في ٣١ ايار ـ مايو ـ ١٨٣٧ م.

ختم الامير عبد القادر تحت النص العربي.

ختم الجنرال بيجو تحت النص الافرنسي[1]

واقيم نصب تذكاري، في موضع تبادل وثائق معاهدة تافنا (تافنة) كتب فيه ما يلي: «في السادس والعشرين من شهر صفر سنة ١٢٥٣ الموافق لفاتح يوليو سنة ١٨٣٧ م وعلى الساعة الثالثة مساء غداة التوقيع على معاهدة تافنة التي اعترفت فرنسا بمقتضاها بالدولة الجزائرية الحرة السيدة تقبل الأمير عبد القادر بهذا المكان ووسط جيوشا آيات التكريم والاجلال من الجنرال بيجو قائد الجيوش الفرنسية النازلة بمنطقة وهران».

---

(١) المرجع: حياة الأمير عبد القادر (شارل هنري تشرشل) ص ١١٧- ١١٩ و ٣٠٢- ٣٠٤ وكذلك تاريخ الجزائر- مجاهد مسعور- ص ٢٧٠- ٢٧١ والأمير عبد القادر. سلسلة الفن والثقافة- وزراء الإعلام والثقافة- الجزائر- ١٩٧٤ ص ٣٤- ٣٩.

(٣)

من رسالة الامير عبد القادر الى ملك فرنسا

(لويس فيليب)

وجه الامير عبد القادر في سنة ١٨٣٩ مجموعة من الرسائل الى القادة الافرنسيين يحضهم على الالتزام بنصوص معاهدة (تافنة). وعندما شعر بنواياهم السيئة، كتب الى ملك فرنسا رسالة جاء فيها:

«الحمد لله وحده.

من عبد الله الحاج عبد القادر بن محيي الدين امير المؤمنين - الى سعادة لويس فيليب - ملك الافرنسيين، اطال الله حكمه، وجعله سعيداً ومجيداً. اما بعد.

فانه منذ ظهور الاسلام كان المسلمون والمسيحيون في حرب. وقد كان هذا يعتبر واجباً مقدساً لدى الطرفين. ولكن المسيحيين، بعد أن نسوا دينهم ومبادئه، أصبحوا ينظرون الى الحرب مجرد وسيلة للتوسع الدنيوي اما بالنسبة الى المسلمين الحقيقيين فهم على النقيض من ذلك، ينظرون الى الحرب ضد المسيحيين على انها مجرد التزام ديني. وهل هناك أهم من هذا الالتزام حينما جاء المسيحيون للاعتداء على أرض اسلامية! وبناء على هذا المبدأ فقد حدت عن القواعد التي نص عليها كتابنا المقدس، عندما وقعت معكم انتم ملك المسيحيين،

منذ سنتين، معاهدة سلام، وبالاخص عندما بذلت كل جهودي لتدعيم هذا السلام بكل الوسائل التي كانت لدي. انكم تعلمون الواجبات التي يفرضها القرآن الكريم على كل حاكم مسلم. اذن، الواجب عليكم شكري على ما قمت به شخصياً لتخفيف صرامة احكامه نحوكم. انك تطلب مني تضحية تتنافى وديني، وهي الخضوع. واراك أعدل من ان تكلفني مثل هذا. انك تطلب مني ان أتخلى عن قبائل ـ هم اخواني في الدين- تلقيت منهم الوفاء والطاعة، وجاءوا بأنفسهم راضين يدفعون إلي ما فرضه القرآن من جزية، وتضرعوا إلي وما زالوا بأن أكون عليهم أميراً. وقد جلت بنفسي عبر مناطقهم ـ والتي هي خارجة عن الحدود التي خصصتها المعاهدة لفرنسا ـ وتريدون مني اليوم ان أطلب من هذه القبائل أن تخضع لهيمنة المسيحيين. ابداً. واذا كان الافرنسيون اصدقائي، فليس لهم ان يطلبوا مني شيئاً يحط من قيمتي لدى شعبي»...

(٤)

رسالتين من أمير المؤمنين عبد القادر

إلى الماريشال بيجو

اصيبت القوات الافرنسية بمجموعة من الهزائم التي باتت تتهدد عملية (الغزو) بكاملها بالفشل، فعملت الحكومة الافرنسية على اجراء تغيير شامل في اجهزتها القيادية العسكرية، وعينت الماريشال بيجو قائداً عاماً في بداية سنة ١٨٤٠ م. ودعمت قواتها بالجزائر، ووصل بيجو (الأسد العجوز) كما لقبوه، وشرع على الفور باعادة دراسة الخطط العسكرية والاستعداد لتطوير عملية الغزو الاستعماري بهدف اخضاع (الامير عبد القادر) الذي كان يتابع عن طريق جواسيسه ما يحدث في العاصمة - الجزائر - فكتب الى الماريشال (بيجو) رسالتين، جاء فيهما:

١ - «السلام على من اتبع الهدى واجتنب الردى. أما بعد:

لقد بلغني انكم جئتم من فرنسا الى الجزائر لقتالنا بما يزيد على ثمانين ألف جندي، زيادة على جنودكم السابقة فيها، فاعلموا أنني بعون الله تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم، ولا أهتم بقوتكم، لعلمي انكم لا تضروني بشيء إلا أن يشاء الله. ولا يلحقني منكم الا ما قدره الله علي، وانني منذ أقامني الله في هذا الأمر وجعلني خصماً لكم، ما

قاتلتكم بجنود يزيد عددهم على ثلث عدد جنودكم التي تحاربونني بها، ومدة ملكي لا يخفى ثماني سنين، ومدة ملككم يتعدى مئات من السنين، وآلاتكم الحربية قوية، ومع هذا البون الشاسع الذي بيني وبينكم، فاني اعرض عليكم أمرين فاختاروا واحداً منهما: اما أن تعطوني ما أحتاج اليه من ادوات الحرب بالشراء. ثم انظم جنودي، واما أن تبقوا في مواضعكم التي تغلبتم عليها، وأبقى انا في بلادي التي تحت حكمي ثم لا يقرب أحدنا من الآخر مدة اثني عشر سنة، فيبلغ عمر ملكي عشرين سنة. وحينئذ اقاتلكم، فان غلبتم فلا عار عليكم، إذ يقال غلبكم رجل له قوة عشرين سنة، وان انتصرتم تكونوا قد انتصرتم على رجل له قوة فيحصل لكم الفخر، وأما اليوم، فانتصاري عليكم يعد فضيحة لكم عند الدول، وانتصاركم علي لا يعد فخراً حيث انكم غلبتم رجلاً عمر ملكه ثماني سنين، ولا قُوّة عنده يقابلكم بها».

وجمع بيجو هيئة اركانه، وعرض عليهم الرسالة، فتقرر بعد مناقشة حادة عدم الرد عليها وتجاهلها، فأعقبها برسالة ثانية:

٢ ـ «من الامير عبد القادر الى الماريشال بيجو:

ان كانت دولة فرنسا ليس عندها من الأرض ما يكفي رعاياها، وأرسلتكم لتغتصبوا اراضينا، وتبذلوا في ذلكم أنفسكم وأموالكم، فنحن نتخلى لها عما هو في ايديها الان من السواحل، ونبقى معها في حال جيران ينتفع بعضهم ببعض، وان ابت الا أن تستولي على جميع وطننا، فنحن سنبذل ما في وسعنا في مدافعتها وحماية ارضنا منها إلى ان يقضي الله بيننا وبينها بما شاء، فان البلاد بلاده، والعبيد عبيده، ولا يخفى عليكم ايها الحاكم ان غزوكم لبلادنا سبب قتل الكثير من جنودكم وإتلاف ذخائركم، وكذلك نحن، وهذا شيء لا يرضى به

عاقل فضلاً عن فاضل. ودولتكم تدّعي انها أول دولة في العالم تحب الانصاف وتفضله وتحافظ على ميزان العدل وتحكم به، ففعلها هذا يكذب دعواها ويبطل ادعاءها. وانتم ومعظم رجالها نراكم دائماً تساعدونها على الاعتداء والاغتصاب، وتبذلون انفسكم في ذلك ابتغاء مرضاتها، ولو كان عندكم أدنى نظر سديد، ما وافقتموها على موت جنودها في الحرب، ومواسم الأمراض المختلفة التي لا تبقي ولا تذر. فيا ترى بأي شيء تعوضون ما تخسره بلادكم من الرجال والأموال والكراع. فان كان يرضيها منكم ان تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجارة مدينة معسكر، أو من تراب الأراضي التي اغتصبتموها فافعلوا. واني أراك ايها الحاكم تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا لتقل الحبوب عندنا، ظناً منكم ان ذلك اقوى سبب لخضوع أهل البلاد لكم، والحال أن هذا ليس بشيء عندهم، فان هممهم ليست متعلقة بلذائذ الأطعمة والاشربة مثلكم، بل يكفيهم ما يمسكون به رمقهم ويقيم أودهم كيفماكان على أن عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في المطامير المعدة لها ما يكفيهم سبع سنين اتية وما تأخذونه أنتم من ذلك فهو جزء من جملة الأجزاء، ولا أراكم في هذا الامر الا كمن ملأ قدمه من البحر معتقداً انه ينقصه. وبالجملة، فنحن لا نترك قتالكم ما دمتم في طغيانكم تعمهون، وفي سبيل اعتدائكم تمشون، والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبانها، فنحن أهلها من المهد الى اللحد، وحروبنا كما علمتم لا نرجع فيها الى قانون يحصرها. بل نحن فيها مخيرون مطلقون، نصرفها كيفما شئنا. وأما أنتم، فقد بذلتم اموالكم، وأفنيتم قوى شبابكم في تعلم طرقها، ولا أخالكم تجهلون انه جاء في كتب التواريخ القديمة ان العرب يبتهجون في معامل القتال، فلا يخطر في بالكم انهم يضجرون

منها، او يتركونها من ذات أنفسهم، ما دامت الاقدار الالهية مساعدة لهم، فان حكمت عليهم بغير ذلك، فمن المعلوم ان الأرض لله من بعدهم يورثها من يشاء من عباده. فلا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه والسلام على من اتبع الهدى واتقى سبيل الردى».

(٥)

لوحة حضارية نقلتها فرنسا إلى الجزائر

(الأرتال الجهنمة)

أعلنت فرنسا منذ وطئت جحافلها أرض الجزائر أنها تقوم بعملها (لتمدين المتوحشين) وتعريفهم (بالحضارة الغربية) فاتبعت في ذلك اساليبها الحضارية التي رافقت (ليل الاستعماري للجزائر) بطوله. وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند الملامح الحضارية الاولى، والتي تطورت باستمرار مع التطور الحضاري لفرنسا.

جاء في أحد التقارير الرسمية - الافرنسية -.

«بناء على تعليمات القيادة الافرنسية، خرجت قوة من الجنود - في مدينة الجزائر - وانقضت قبل الفجر على افراد القبيلة، وهم نيام تحت خيامهم، فذبحتهم جميعاً دون أن يستطيع أحد الدفاع عن نفسه، وقد لقي الجميع حتفهم دونما تمييز بين رجل أو امرأة، وعاد الافرنسيون من هذه الحملة وهم يحملون رؤوس القتلى على أسنة الرماح».

وجاء في تقرير فرنسي آخر:

«بيعت كل الماشية الى قنصل الدانمارك. وعرضت بقية الغنائم للبيع في سوق باب عزون في عاصمة الجزائر ذاتها، ووزع ثمنها على

ذابحي اصحابها. وفي ليل ذلك اليوم أصدرت الشرطة ـ البوليس ـ امرها الى اهل المدينة باضاءة الانوار في حوانيتهم علامة على الابتهاج».

وجاء في تقرير احد اللجان الرسمية الافرنسية:

«لقد ذبحنا اناساً كانوا يحملون اجازات بالتنقل، كما قضينا على مناطق بأكملها اتضح فيما بعد ان ضحايانا فيها ابرياء. رجال عرفوا بالقداسة بين عشيرتهم، وآخرون لا تنقصهم صفة الاحترام بين ذوي قرابتهم لمجرد انهم مثلوا أمامنا سائلين الرحمة بزملائهم. وقد وجدنا قضاة ليحكموا عليهم ورجالاً متمرنين لشنقهم».

وكتب الماريشال سانت أرنو ـ الى اهله:

«ان بلاد بني منصر بديعة، وهي من اجمل ما رأيت في افريقيا، فقراها متقاربة واهلها متحابون. لقد أحرقنا فيها كل شيء ودمرنا كل شيء... اني افكر فيكم جميعاً، واكتب اليكم ويحيط بي افق من النيران والدخان. لقد ذهبت الى افراد قبيلة (البراز) فاحرقتهم جميعاً، ونشرت حولهم الخراب، وانا الآن عند (السنجاد) اعيد فيهم الشيء نفسه ولكن على نطاق أوسع».

وكتب موتيناك في كتاب له اسماه ـ رسائل جندي ـ ما يلي:

«لقد كانت مذبحة شنيعة حقاً، كانت المساكن والخيام في الميادين والشوارع والافنية التي انتشرت عليها الجثث في كل مكان. وقد أحصيناهم في جو هادىء بعد الاستيلاء على المدينة، فكان عدد القتلى من النساء والاطفال الفين وثلاثمائة. اما عدد الجرحى فلا يكاد يذكر، لسبب بسيط، وهو اننا لم نكن نترك جرحاهم على قيد الحياة».

وكتب القائد الافرنسي ـ الكونت هيربسيون ـ ما يلي:

«فظائع لا مثيل لها، أوامر بالشنق تصدر عن نفوس كالصخر، يقوم بتنفيذها جلادون قلوبهم كالحجر، بالرمي بالرصاص احيانا، وباستعمال السيف في احيان اخرى، في اناس مساكين كل ذنبهم انهم لا يستطيعون ارشادنا الى ما نطلب منهم أن يرشدونا اليه. ومع ذلك فان الميل الى سفك الدماء، وحب التعذيب بازهاق الارواح جملة، وبابادة القرى والقبائل، واحراق البيوت والتمثيل بالموتى والاجهاز على الجرحى، والفتك بالاطفال والشيوخ والنساء، والاتجار باعضائهم المبتورة، وحليهم ومتاعهم الغارق في دمائهم. هذا الميل لم يجد في كل الذي رويت لك طرفاً منه ـ ما يشبعه أو يرضيه، فأخذ الافرنسيون يتفننون في ابتكار وسائل اخرى لم يعرفها تاريخ البشرية على كثرة ما حفل به هذا التاريخ من الفظائع والآثام، فهدتهم غريزة التدمير والتخريب النامية عندهم الى طريقة اسموها انفسهم (بجهنم) وخلاصة هذه الطريقة، أن يسد الجنود الافرنسيون باب الكهف أو المغارة التي يلجأ اليها الجزائريون بنسائهم واطفالهم ومواشيهم فراراً من الموت والقتل والاحراق، ثم يشعلوا في بابها ناراً حامية، فيختنق القطيع البشري داخل المغارة مع قطعان الماشية التي صاحبته الى جوفها، فاذا انبلج الفجر، ذهب الافرنسيون لمشاهدة هياكل الثيران والحمير والخرفان ويظهر انها اندفعت بغريزتها نحو مخرج الكهف بحثاً عن الهواء الذي انعدم في الداخل فتكدست بعضها فوق بعض، وتكومت جثث الرجال والنساء والاطفال بين هذه الحيوانات ومن تحتها. وشوهد رجل ميت وهو جاث على ركبتيه وقد أمسكت يداه قرن ثور محترق وبجواره امرأة ميتة تحتضن بين ذراعيها طفلها الميت، مما

يدل على ان هذا الرجل قد اختنق وهو يدافع عن امرأته وطفله اللذين اختنقا أيضاً إثر هجوم الثور عليهما»[1]

---

(١) ـ تاريخ الجزائر ـ الاستاذ مجاهد مسعود ١ / ٣٣٩ ـ ٣٤١

المراجع الرئيسية للبحث

١ ـ تاريخ الجزائر ـ الاستاذ مجاهد مسعود ـ الجزء الاول ـ الجزائر.
٢ ـ حياة الامير عبد القادر ـ تأليف شارل هنري تشرشل ـ ترجمة وتقديم ـ الدكتور ابو القاسم سعد الله ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس ١٩٧٤
٣ ـ الامير عبد القادر ـ سلسلة الفن والثقافة. اصدار وزارة الاعلام والثقافة الجزائرية ـ طبع مدريد ـ ايار (ماي) ١٩٧٤.
٤ ـ الثورة الجزائرية ـ احمد الخطيب ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ايار (مايو) ١٩٥٨

---

5 - POLITIQUES COLONIALES AU MAGHREB - (CHARLES -ROBERT AGERON) PRESSE UNIVERSITAIRES DE FRANCE - PARIS 1972
6 - L'AFRIQUE DU NORD(JEAN DESPOIS) PRESSE UNIVERSITAIRES DE FRANCE - PARIS - 1964.
7 - LA RESISTANCE ARMEE ALGERIENNE 1830 - 1920 (ETUDE DOCUMENTAIRE) MINISTRE DE LA DEFENSE NATIONALE) ALGER 1974.

الفهرس